من دفتر العشق والغربة

- هاتف
- هلاتها
- أماكنها
- من رحم إلى رحم

إلى

أمد على أبد.. فقدت

فيه وما زلت!

٦٠٥

هاتف

احـــــبـــــة قلبى وان جـــــرتم(*)

عـــلـــى فـــكـــل المـــنـــى أنـــتـــم

رحـلـتـم وفـى الـقـلـب خـلـفـــــتـم

لـهـــيـــبـــا فـــهـــلا ترفـــقـــتـم

واودعـــــــــتـم يـوم ودعـــــــتـم

بـاحـــشـــائـى نـارا واضـــرمـــتـم

نوبة العشاق

ميزان درج العشاق

(*) جميع المقطوعات الشعرية فى الدفتر من أشعار الموسيقى المغربية الاندلسية. خاصة نوبة العشاق.

فزعت فجمحت فجرا فكدت أهوى هوياً.

تسارع خفقى، وتسابق نبضى، حتى وجفت، وخفت، ولكى أتقى أمسكت على أنفاسى، ليل موغل، وصمت جاث، ونأى سحيق، ومسافات قصية. أما ماسمعته فمازال صداه يتردد فى سمعى، ويتوالى عندى، لم يول بعد بزوغ الصوت المادى، الذى اجتاز كينونتى، ونفذ إلى لبى، صوتها، نبرها، إيقاعها، جرسها، لايمكن أن أضل عنه أو يتوه منى، حضوره، خصوصيته، تفرده، امتزاج الإيقاع الطفولى، المبتسم، المرح، الصافى، بتلوناته الأنوثية، أتلفت حولى، أوشك على تلمس حضورها القوى، الجاب ماعداه، دهمنى عندما دنا نومى، وتميعت يقظتى، فاختلطت الحدود وامتزجت المشارف، يحدد صداها، وجودها الحسى يضج حولى، فكأنه أفلت من أسر الكينونة، ومحدودية الإحاطة، عبر المسافات القصية، وفض المغاليق، والأبواب، والحواجز، والسدود، والمخافر، وانتهى إلى

مرقدى، أو انفلت عبر الفضاءات العلى، ودنت منى فى مروقها، فى سريانها. وعند محاذاتها حضورى الجثمانى أودعتنى صيحتها ثم أفلتت مولية. مغرية، شاردة إلى كل صوت عداى.

على مهل تستقيم دقات قلبى. تجتاز حبات عرقى مسامى مفلتة. يشرق وعيى مستوعبا مايحدنى. هذا مرقدى، وتلك جدرانى، وذاك فراغى المحدود. رائحة جسدى، طيات فراشى، كتبى التى أطالعها قبل وسنى، تلك وحدتى، نفاذ غربتى إلى ضميمى، وازدياد نأيى، وشدة بعدى عنها، ومر افتقادى لها.

أدرك بعدى القصى، أعيد رأسى إلى ذراعى، تتوالى الثوانى فى صيرورتها، لكن.. لايخف بهتى. ولا تنقضى دهشتى، ولا يهدأ روعى. ماسمعته حقيقة، ليس إلا صوتها الذى أعرف، أستعيده مرات فى يومى، فى سعيى. فى سكونى، وعند كدرى لأهجع. نادتنى، لفظت اسمى، وشيئا آخر من كلمتين، استفسار؟. عتاب؟ نداء؟ ربما، كلمتين جامعتين، دالتين، تحويان الخلاصة، لكننى لم أتبينهما، لم أستدل عليهما، لم أقدر حتى على تلمس ملامحهما، معرفة دلالات حروفهما.

لكنها صاحت على.

من أين.. إلى أين؟

كيف؟

مامن إجابة تهدئنى.

أحقا هى؟ أو أنه الهاتف الذى يباغت الخلق فى نومهم عند هذه الساعة الفجرية، الندية، التى يكون عندها الوصول والإقلاع، الميلاد والموت. الغرق والطفو، قديما قال من أتى بى إلى الدنيا إن الهاتف يمرق فى الفراغات العلا ليلا، يدرك البعض بلفظ أو جملة مختصرة دالة، ينبه غافلا، يوقظ نائما، لايترك أثرا، لكنه يدع خشية وحذرا، وخوفا من مجهول لايمكن سبر كنهه.

لكننى واثق، أنه صوتها، لم تحل الأيام والمسافات بينى وبينه. ربما استعاد الهاتف ملامحه، ألصق ركبتى بصدرى، أستعيد وضعى داخل الرحم مع وعيى وإدراكى للبعد، تثقل على تلك اللحظات العسرة. لاأقدر خلالها على المشى، أو القعود، أو القيام، أو الالتفات، أو البكاء، أو النظر حتى. لحظات يكتمل فيها إدراكى ببعدها عنى، أنها ليست فى متناول حواسى، أنها مستحيلة الآن، أنها فى ديار وأنا فى ديار، ودوننا مسافات شسع. أننى لا أقدر على استدعائها إلا بعينى مخيلتى، واسترجاع لحظاتنا إلا بالذاكرة الكليلة، المحدودة. استعادة بعضها وليس كلا مما كان وجرى.

أرفع رأسى، كأنى أحدق إلى مرئى حاضر، صوتها الذى نادانى منذ لحظات يشبه ما أصغيت إليه عبر أول وآخر اتصال، بالضبط منذ أسبوعين.

عندما ودعتنى، رافقتنى حتى الحاجز الذى يجب الافتراق عنده، عندما حاذى خطوى خطوها، انعكس حضورى فى عينيها، تماستِ أطرافنا، منحتنى جانبا جميلا، أمنا، ولمسات منداة من أصابعها الحانية، العطوفة على، مالت جهتى، برقت مويجات عينيها.

مارأيك.. لو اتصلت بى الليلة بعد وصولك؟

تطلعت إليها. أومأت مرتين، ثنت شفتها السفلى، مطوية بالعليا. أحببت منها ذلك عند إبداء مرحها البكر، قالت:

ـ سأنتظرك..

نزلت بلادى فجرا، بعد تمام إجراءات الوصول، وتحديق العيون، والتطلع إلى السمات، سعيت إلى أحد الواقفين. استفسرت عن مكان أجهزة الهاتف. أشار ودل. تطلعت إلى الوقت، إنه متقدم ساعتين هناك الآن، يدنو فجر مضاربها الآن، أما ليلى فمازال فى صميمه، هكذا انتقلت من زمن إلى زمن، من حال إلى حال، استعدت طلبها المفاجئ، انحناءة رأسها، ابتسامتها، قالت إنها لن تودعنى دامعة أبدا، فأيام الانفراد القادمة كثيرة، بدأ إدراكى باكتمال النأى، وقوع الاغتراب. وأن ماكان مدركا منها بالحس، لم يعد ممكنا استعادته إلا بالمخيلة، انفطر شطر منى، وحتى أسترجعه لا أدرى كيف ستتوالى الأمور؟، قال الضابط الشاب إن أجهزة الهاتف الصفراء تلك للاتصالات المحلية، أما الدولية فهناك فى صالة العابرين.

تجاوزتها، والعودة صعبة، يبدو أنه لمح حيرتى، وتعبى، قال إنه من الممكن إجراء الاتصال من الفندق القريب من المطار، هناك مركز لخدمة رجال الأعمال، لكن.. لابد من قطع مسافة إلى الفندق، الوقت متأخر. والحقائب ثقيلة، أما رغبتى فى الوصول إلى بيتى فطاغية، أود الانفراد بذاتى واستعادة ما كان، ومحاولة التنبؤ بما سيكون.

مع بدء اليوم الجديد، امتزج يومها بزمنى، بوقتى، حددت فرق التوقيت. الآن تجتاز مدخل بيتها، تعبر الطريق المحفوف بشجر كثيف. عند نهايته بوابة حجرية عتيقة، تخرج إلى الشارع العريض، حيث موقف عربات الأجرة صفراء اللون كنت أتابع انتقالها، توقفها هنا أو هناك، وصولها المكتب، احتساءها القهوة، على امتداد النهار أتعلق، أتشبث بالعلامات الفارقة، تناولها الغذاء السريع فى الثانية، انصرافها فى الخامسة، يحار.. هل مضت إلى والدتها؟، إلى صاحبتها؟ إلى بيتها؟ أم تنفرد بذاتها فى مقهى مجهول لى؟، ربما تخطو فى عالمها الصغير، شقتها المحدودة التى أحالتها إلى مكان فسيح بما وزعته هنا وهناك من أشياء جميلة، صغيرة.

إذ يأفل الضوء، ويكتمل الليل، لاأقدر على تحمل الصور وانتفاض اللحظات، أسعى خارجا، مزدحما، تواقا إلى عبيرها. عندى يقين أنها ترقبنى من مكان لا أدرك كنهه، يتحدد إيقاع خطوى، وانتظام سيرى. وحر زفراتى، مضيت إلى مكتب

الهاتف الدولى، طلب منى الموظف أن أدخل إلى المقصورة الضيقة، أغلقت الباب، أحكمته. لا أتقن الحديث همسا، كنت مضطربا، غير قادر على التحكم فى نبضى، لحظات وأصغى إلى صوتها. أتعلق به، أتركز فى الإصغاء، نستحيل إلى ألفاظ، وثوان معدودات، بعد أن كانت دانية، قريبة، مدركة لى، متوغلة عندى، تستحيل إلى صوت، يتبدد فى الفراغ، لايلمس ولا يمسك، لايمكن تقبيله أو تنسم روائحه، أو الاتكاء عليه سعيا للدعة. لكنه يصدر فى اللحظة عينها عبر وجودها. وهذا مايخفف التياعى. وتلك النار الموقدة، بطيئة الخمود عندى.

عندما التقينا إثر فراق قسرى دام زمنا مقداره عامان وثلاثة شهور وستة أيام، عندما هلت على، وطالعتنى هيئتها، عندما مددت يدى واحتويت حضورها واستكانت إلى صدرى. واستكنت إليها، بزغ عندى الخاطر المشئوم.. إذن بدأ العد التنازلى لفراقنا، زمنى معها محدود، والعقبات لاتحصى، وما أمر به الآن يتحول إلى ماض، فلأدخر قبسا من هذه اللحظات، لأتخيل كيف يمكننى استعادتها، فلأتزود منها لأيامى العجاف، لقهر غربتى فى موطنى، كأنها أدراكت عنى فى أول لحظات اجتماعنا، قالت، دعنا نعيش مانمر به، لاندرى ماسوف يكون!

غير أن وحشتى إليها فى اقترابى منها أناخت على، وإدراكى أننى مفتقدها أفسد على آنيتنا، لكننى حاولت، واجتهدت، وسعيت، غير أن دنوى لم يزدنى إلا بعدا، وتوغلى

عبرها، وامتزاجها بي لم يدفع زمن الفراق لحظة، فمقامي ليس على مقربة منها، وحضوري موقوت. مشروط، عيشها بعيد عني، أسعى هنا، وهي هناك، إذا جئتها فأنا عابر، غير مقيم، وإذا وفدت على فهي مغتربة، الظرف صعب. والحال وعر، ولم الشمل دونه محاذير. هكذا.. وقفت داخل المقصورة. عرقي ينز لارتفاع درجة الحرارة، وتصاعد ذرات التراب، تؤطرني محدودية الموضع، رفعت السماعة منتظرا، مستوفزا متأهبا للتلقي.

أصغيت، تكتكات سريعة. متعاقبة، صمت، وشيش كوني غامض، ماذا يجري في الفراغات الفاصلة وعبر المسافات الممتدة والمويجات غير المرئية، والصمامات المعدنية، والأسلاك الغليظة، والنحيلة، الممتدة، الملتفة، ماشكل صوتي إذ ينقلب إلى ذبذبات، وأي طريق يسلكه صوتها، عبر الحجب، والمسافات، وهل تتماس مويجاته بموجاتي، أم تتقاطع، تلتقي أو تضل عن بعضها. تفنى أم تبقى؟ ياحسرة وعرة، بعد اتحادنا ننقلب إلى ما لا يمكن رؤيته.

أصغيت إلى تموجات، كأن أبوابا سحرية غامضة تفتح أو تغلق، ماذا يجري عبر الأسلاك والفضاءات والأجهزة المنصوبة؟

جاءني صوت موظف المكتب:

ـ تفضل.. تكلم.

شببت على أطرافى، صرت مستوفزا، متأهبا بكينونتى الآنية، والمنقضية، والتى ستنقلب إلى عدم، تهيأت لأتلقى منها، وتتلقى عنى. ألصقت السماعة بأذنى، صارت جزءا منى..

تلك هى.. صوتها، مذاقه، طلته، ظله، تقلبات ألوانه، بكل مايحوى، بما يرسله، وما يستودعه، ومايستثيره..

ـ نعم.. من؟

نطقت بحروف اسمى. غير عابئ، غير مبال بارتفاع صوتى، انتفت الموجودات كلها، لم يعد إلا هى، كل شىء غائب عداها، ومحاولتى الإمساك بما لا يمكن إدراكه أو نيله أو الوقوف عليه.

ـ من.. من يتكلم ؟

تتساءل، تستفسر، تنطق من موضع أعرفه، بين جدران ضمتنى وإياها، ومن فوق فراش احتوانا سويا، وفوقه بسطت حدائقها، وأباحت لى مروجها، منحتها نضجى واشتمالى. ترقد، تقف، تنحنى؟مرتدية ؟ متجردة، تجلس إلى مكتبها الصغير، تتأهب لعبور ليل يعقبه صباح بدونى؟، من جوار الهاتف أصغيت إلى صوت المطر عندما بدأ نزوله آخر الليل، فأصغيت. وتجدد انتشائى، وتصاعد إحساسى بالقرب، مع التوحد الآثم فاقبلت أسعى من جديد حتى ابتسمت متعبة بالنشوة، ناطقة بشكوى المتعة، أنهكتنى. ولم يزرنى خدرها، وغزارة المطر إلا إمعانا فى اللجة، حتى صار وقتا يحتذى

الوصول إلى مثله، والسعى معا لإيجاد قرينه.

ـ من.. من يتكلم..

عصبية فى صوتها، اكرر زاعقا اسمى، يبزغ خطأ ما، لا أدرى مصدره، أو كنهه، أصيح فلا تسمع، وتصرخ فأصغى، سمع من طرف واحد، أو أنها تبدى، تتجاهل، يدب الشك عندى، أهى بمفردها، فى لحظة صعب إدراكها أو توصيفها يفلت، ينقلب مبتعدا، يتحول إلى استدارات معدنية، وخفقات مجهولة، وإشارات ملغزة، وترددات خفية. يجيئنى صوت الموظف..

«انقطع الخط..»

رجوته تكرار المحاولة، مرة أخرى، ثالثة، عبثا، لامجاوبة، عند حد معين أدركنى خجل فأنهيت الجهد، خرجت إلى الطريق خائبا، أدرج وأنا حسير، تتكأكأ على الهواجس، وهواجم الأفكار، هل سمعت صوتى، هل منعها عائق؟، أمضيت الليل أرقا، ساهدا. فى الصباح وقفت أمام موظف آخر، ضغط الأزرار، وأعمل المفاتيح، ثم تطلع إلى آسفا.

الرقم عاطل..

جملة تكررت فى مسمعى مرارا خلال الأسابيع التالية، كنت أمضى إلى نقاط شتى من المدينة، مكاتب اتصال، فنادق كبرى، فى كل مرة تجيئنى الإجابة، الخط مصمت، أخرس، عاطل، ما من مجيب.

شيعت الخطاب إثر الآخر، لم أتلق حتى الآن ردا، سعيت عبر أيامي مهموما، مطرق الهامة، مثقلا بالانقطاع، ماامن مهدئ إلا لحظات وصلنا، نوبات لقائنا، امتزاجنا، تفاهمنا، فى كل يوم يمر يتوارى موقف، يبهت، وقد يبرز آخر، أنام وهى آخر مايتراءى لى، وأصحو فألقاها داخلى، أوشك على تنسم رائحتها التى أعرف، حتى حلت بى هذه الظهيرة، أو حللت بها، كنت على وشك الدنو من المقهى الذى اعتدت أن أخلو فيه إلى ذاتى، أقصده فى مواعيد أعرف أن صحبى يغيبون فيها..

نادتنى!

صوتها، سمعته بحواسى كافة، سمعى، وشمى، وإبصارى، وقدرتى على اللمس، لايمكن أن أخطئه أبدا، لا أضل عنه قط، نفذ إلى عبر ضجيج العربات، والطريق، وتدفق الحركة، وقفت مبهوتا لا أنطق، خشيت الالتفات فألقاها، عندئذ تقع المفاجأة التى لا أدرى مداها وأثرها عندى، خفت ألا أجدها فتبدأ الخيبة، ويتجدد الفقد، آثرت تأجيل اللحظة وجمودها، توقفت مكانى، غير أن يدها لم تلمسنى، وأنفاسها لم تتردد على مقربة منى، على مهل استدرت، لم أر إلا امرأة عجوز تسعى، ورجلا يتلفت حوله، كان الحضور قفرا منها، خلوا من أطيافها، أما صوتها الأنثوى السوسنى، المغموس فى الرضا والود فما من صدى حتى! مضيت خائبا إلى المقهى. لاأدرى كيف مرت بى تلك الظهيرة، ولأيام تالية انعكس ماعندى على ملامحى، فبدأ الاستفسار من الصحب.

ـ مالك تبدو مهموما..

ولا أقدر على البوح، أو إبداء الشرح أو التفسير، كيف أفصح عن فقدى، وصعوبة هجيرى، مضت الأيام بى، ومضيت بها، لا أنا انثنيت، ولا بادرة لاحت، لا الهاتف نطق، ولا الجهد أثمر، حتى استبهم الأمر، وتعثر وقتى، وكلت مساعى، غير أن تردد صوتها من مصدره الخفى عنى استمر يفاجئنى، فى هجوعى، فى تطلعى إلى الأفق الممتد، فى ثباتى، فى رحيلى، فى قيامى، فى قعودى. فى أوقات لم أتأهب لها. لم أعد لها العدة.

مرة تنادينى باسمى، فتوقد داخلى الجذوة، ومرة يسبح همسها داخلى منطلقا من مصادر خفية، معيدا إلى بعض لوازمها التى أحببت وسعيت إلى تكرارها، عندما كنت أتطلع إليها صامتا، مرغما على السكون بتأثير دفقها، ولانعدام قدرتى على ترجمة هديرى إلى ألفاظ منطوقة، عندئذ تميل تجاهى، تسأل:

ـ ماذا؟؟

سؤال ممتد، مغلف بغيم، واعد بانهمار سيل إذا صادف الجواب المرضى، أقول باختصار، إننى عندما لا أقدر على البوح، يكون المعنى عندى عظيما جللا.

عندما كانت تستحسن أمرا، تومئ برأسها مرات سريعة، وتقول:

هذا طيب..

عندما وقفت فى فراغ حجرتها. شاهقة، حاضرة، مرمرية، كونية الفيض، تسألنى عما يروق فى عينى قبل رسوها إلى جوارى. هذا الثوب أم ذاك ؟ تبدل، تغير حتى يلوح منى ماينم عن رضاى.

عندما تدفق ضحكتها، ألمح فى تتابعها شجنا فيه صدى بكاء عسر، عندما تنطق بعربية متعثرة:

«إن شاء الله..»

كل ماجرى، ماكان، تلخص فى هذه الأصوات المبهمة، دائما أنتظرها، عند ذروة توقعى لاتأتينى، وعندما أتلهى، أو أفرغ إلى أمور غير ذى علاقة تدهمنى، فأحاول جاهدا التعلق بما لايرى، اتقاء لعدم أخشى أن يدركنى فيذرينى..

فبراير ١٩٩٠

هلاتها..

رايت الهـــلال ووجـــه الحـــبـــيـب
فـكـانـا هـلالـين عـنـد الـنـظـر
فلم ادر ايهـــمـــا قـــاتلى
هـلال الدجى أم هـلال البـــشـــر
فـلـولا التـــــورد فـى الوجـنـتـين
ومـــا راعنى من ســواد الشــعــر
لكنت أظن الهـــلال الحـــبـــيـب
وكنت أظن الحـــبـــيـب القـــمـــر
فـــذاك يـغـــيـب وذا لا يغـــيـب
ومـــا من يغـيـب كـمـــا من حـضـر

نوبة الحجاز الكبير
صنعة متقارب

مستهل..

.. إنما متعلق الأمر بترتيب خارج عن طوعى، ونظام لم أسهم فيه بنصيب، زمن يمضى، وقت يسرى، عصى على الرصد أو النيل، مع أنه مدركى وبالغى عند الشهيق والزفير وما بينهما.

هكذا.. لا ألقاها إلا فى رحيلى، وإن كانت من عناصر إقامتى، وتحريك ديمومتى. أنا فى جهة، هى فى أخرى، ما بيننا شسوع مدى، عوامل شتى من نظم جغرافية وتاريخية باقية، وسياسية موقوتة، ترتيب ومصادفة، أثمرا لقاءنا وابتعادنا، فترات وجيزة، مارقة، مرجع القياس أوقات تباعدنا لغلبتها.

فى إحدى رسائلها خطت مانصه:

«إن الحياة تمر بسرعة، ومرات اللقاء نادرة والوقت بخيل..»

عبرت عما جال عندى وصال على، لو تكررت مرات اللقيا فى الآتى، قدر الماضى، لو تجاورت الأوقات المتباعدة واتصلت، فما هو إلا نزر يسير لا يشفى الغليل!

سألتنى صاحبة لى،. مطلعة على أحوالى. ملمة بعنصر اشتياقى:

«كيف يدوم العشق مع غياب المعشوق؟»

واجهتها صامتا، حائرا، مامن إجابة مقنعة. شافية. شرعت فى القول إن حضورها مع البعد يكون أحيانا أقوى من تجسدها الحسى عند دنوى وتنسمى شذاها، وارتشافى. وإن اشتياقى مع القرب يتأجج، وقد يقع منى الشرود والفتور. غير أنى لزمت السكون، كيف ستتلقى هذا عنى؟

أما واليأس من الاجتماع واقع الآن، فإننى أجتهد لأستعيدها جملة وتفصيلا. يقوى حضورها عندى فتعشى ذاكرتى لشدة السطوع، وتألقه حتى لأطرق مغمضا عينى. غاضا: آملا تخفيف هميانه على.

أحيانا أخرى، وهذا غالب، طاغ، أجتهد محاولا الإلمام بقبس من حضورها الذى ولى، من سريانها الذى كان، من دفقها، من تفردها، من حنوها على، من إلمامها بداخلى، من إدراكها سكناتى، بلوغها مراحلى، وفهمها عنى بالنظر مالم يدركه الآخرون بالشرح والتأويل والتفسير.

كثيرا ما يطيش تصويبى، ويضل قصدى، ولما كانت أيامى تميل إلى أصيل غروبى، مامضى أكثر من المتوقع الآتى، مع ثقل الحمل، وتبدل الزمان، وشح الأنس، لذلك عزمت، وتوجهت، غير خاضع لترتيب، إلا ماتمليه قوة الخاطر على، وتوهج الشوق، وانبعاث الحنين، بعد أن صار منفاى فى دار إقامتى.

أما الغرض من هذا كله، فاستحضار المحبوب ولو بالمخيلة، وتثبيت ما قد يرد على اليوم، وأعجز عن استعادتى غدا، دأبى المشاهدة وغايتى القرب، غير أننى لما لقيت الشوارد متناثرة، وشظايا الوقت متنافرة، آثرت لملمة ماتباعد، لعلى آتى منها بقبس، هكذا تحدد الأمر بثلاثة روافد، أماكنها وأزيائها غير اننى أبدأ بذكر هلاتها.

* * *

.. عصر.

ضوء واهن، مر وضن بستائر شفافة مسدلة، بقايا غير منظورة لآخرين عبروا الزوايا والأركان، مابين الفرجات التى تفصل بلاطات الخزف، داخل الصوان الأربعينى أو الثلاثينى العتيق. فراش ضيق، وثير، ناصع، ترى.. كم توسده قبلى؟ أى جهات قصدوا وأى أزمنة أقلعت بهم؟

سقف مرتفع، رائحة ظل مقيم، جدران فاصلة، وإدراك عندى للرسو، للوصول، أما الطريق العريض. الهابط من المطار

إلى المدينة عبر الغابات الكثيفة، جعدة الخضرة. فيبدأ عندى وينتهى إلى، هذه العمارات، تلك النواصى، المداخل العريضة، لافتات المخازن، محطات الحافلات، مقاعد الحدائق العامة، النصب التذكارية فى الميادين، ينتسب هذا كله إليها ويمت، هل تطلعت إلى هذه الناحية، هل ألم بصرها بتلك الشجرة، هل خطت فوق ذلك الممر؟، ربما تعلق نظرها بهذا المنحنى.

ربما يعنى لها هذا الممر المؤدى معنى، ربما يستثير عندها رؤيا كامنة، هذه الواجهات، كم توقفت أمامها، كم مرة عبرت هنا، أى شئ توقعته هناك؟.

ربما أطلت من إحدى هذه النوافذ العديدة، المتشابهة، المتجاورة، المتراصة، الصارمة، أين سعت شابة؟ وأين حبت طفلة، أى حدائق آثارت بهجتها، وأى نهارات أينعت الأمل أو أثارت الذكرى.

كل مايقع عليه بصرى ينتسب إليها. إدراكى هذا يضفى على حضور المدينة الممتدة الضخمة ظلالا ودرجات من الضوء والمشاعر، هى المقصد، والنبع، ومرجع البديهيات. من الطابق السادس أطل، أدرك الرصيف المقابل، حافلات تندفع، تتوقف، مارة يسعون، نساء طاعنات، أخريات شابات، صبية، فى كل منهم شئ منها.

نهار باق رغم رحيله، فى موطنى اكتمل الغروب منذ ساعة، يستمر مكث الضوء هنا فى شهور الصيف تلك، حتى بعد

غياب مصدره الكونى، فضوء ولا شمس، ونهار ولا نهار، هذا شأن بلدها الشمالى، فما أغرب!

هى هنا!

فى هذه المدينة. هذا التكوين، ملامحها، قسماتها منبثة فى حضور المبانى، وتقاطع الطرقات، وغربة النواصى، وسعى المقيمين، ومرور العابرين.

جئت مرتين، الأولى مع بدايات الخريف وتعرى الغصون من أوراقها وبدء شحوب الكون، والثانية مع السبات الشتوى، واكتمال الكمون، وانغلاق الذوات على مضامينها.

إقامتى الآن صيفية، انفراجة أفق، وإسفار وبوح وتصريح، يبقى المعنى ناقصا طالما لم أستدل عليها بعد، كافة ماسبق نقاط تمهيد، إقلاعى، وصولى، عبورى بوابات المراقبة. نظرات فاحصة، كتابة الإقرارات، تلهفى، خفقى، توقعى رؤيتها بغتة، ألم أنبئها قبل شهر؟، ربما لم يصلها خطابى. ربما لم تعبأ..

أقصيت الخاطر، لم يهن توقعى، حتى بعد اجتيازى آخر البوابات، تقدم سيدة فى منتصف العمر، زجاج منظارها الطبى غامق سميك، قالت إنها مكلفة باستقبالى، باصطحابى. وددت الاستفسار منها، مع أنها لاتعرفها. لم تلتق بها، لكننى رغبت ذكرها بلسانى، غير أننى كتمت.

لم أخبر بمطالعتى ملامحها عبر السحب والغمامات، والمدن القصية، وتحرك لحن قديم عندى، فإلى الشجن نزوعى، خاصة

إذا استدعيت بالمخيلة من أهوى، لم أنبئ بدافعى الحقيقى للمجىء، تلهفى للرؤية، توقى إلى أوبة مرتقبة تجمع متفرق الشمل.

دائما كنت فى مداها، تتطلع نحوى من موقع خفى لا يبين، فإذا مشيت، كيف ترانى؟ وإذا نطقت: كيف تسمعنى؟ وإذا شردت أنتبه حتى لا أتوه عنها. إذا خلوت ونأيت عن الخلق، وتحدد عالمى، يقوى على حضورها، فأوشك على لمس أثدائها، وتنسم عبيرها الكلى وتقلباته، عند النظر، عند التدانى.

يهن الوقت، كيف تمضى أول ليلة بدون سماع نبرها على الأقل؟، مرة أخرى أقوم إلى الهاتف.

صوت أبيها، على مشارف الهرم، به ظلال من فترة بعيدة. يعرفنى، فى صوته مودة، كافة رسائلى وجهتها إلى عنوانه، أبدى ترحيبا متمنيا إقامة سعيدة، إنجليزيته ضعيفة مع أنه يتقن ثلاث عشرة لغة. معظمها غير شائع، أو منقرض. فى المرة الأولى أخبرته اسم الفندق. هذه المرة نسيت أيضا ذكر رقم الغرفة، لم تتصل به بعد، مازال فى انتظارها.

أخشى مفارقة الغرفة، لعل وعسى!

يستمر همود الهاتف، أتطلع معاتبا، ولتبديد الوحشة، وللتخفيف نطقت: كف عن صمتك!

لو يتردد الرنين، حتى وإن أخطأنى الطالب. لكن.. من؟ من سيسعى إلى الآن؟. معارفى - وهم قلة - لم يستدلوا على

مكانى بعد، عزمت وقررت ألا أرى إنسانا قبلها، فمن أجلها مجيئى، وصوبها سعيى، ماعداها غطاء وحجة.

انقضاء عام أو أكثر بعيدا عن ديارها فى جانب، وفوات دقيقة واحدة بدونها وأنا على مقربة فى جانب آخر، فى الحال الأول الأمر قسرى، أما الآن.. فأى حجة، أى تبرير، انعدام اللقاء على القرب أشق من غيبة أعوام متتالية.

تبديل ملابسى أول علامات قنوطى، كذا لجوئى إلى الفراش متلمسا بدء هجوعى، يحط على تعبى، صدودى عن الطعام قائم، لم أفارق الغرفة خشية أن تطلبنى أثناء غيبتى.

كمدت.

بدأت مرحلة انتقالى من اليقظة إلى النوم، مستسلما إلى كافة هواجسى وظنونى، هل أبلغها والدها حقا؟ الرجل وعدنى مرتين، بدا متفهما، مطمئنا لى، إذن.. لماذا الصمت؟ أيعوقها أمر؟

ماهو؟

ربما لم تعبأ، لم تبد اهتماما بتأثير من فتور الهمة، كيف يدوم العشق مع البعد؟، ربما خرجت إلى نزهة، إلى سهرة مع زوجها، ربما مع صاحب أجهله، لم ألم بتفاصيل كافية عن أيامها، عن علاقاتها. عن سريانها هنا وهناك. لم أطلع إلا على عموميات. منها جفوة الصلة مع من ارتبطت به فى سن مبكرة،

حتى أنها تأبى الإنجاب حتى الآن بعد مرور ست سنوات ودنوها من الثلاثين، قالت لى إنه سن مخيف بالنسبة للمرأة، أستعيد شرود نظرتها، لحظة نطقها المعنى والعبارة أرى فناء فسيحا مسورا لكننى لا أذكر المبنى، تمرق رائحة بعيدة تمت إلى فندق قديم، عربة تتوقف، وسحب تتجمع منذرة بمطر، لحظات شروق مبهمة، ركاب مرهقون داخل قطارات تسعى فى عمق الليالى المندثرة، أرصفة محطات خالية، فتاة متفجرة بالأنوثة تمشى أمامى، أكاد أقتنص شذاها، طريق ضيق مظلل، واجهة شاهقة، زخارف، زجاج ملون يتخلل جصا، مقهى، صبى حائر، أين، أين؟ رنين، رنين، رنين.

أنتبه منتفضا متسارع الخفق، ظامئا، أتطلع إلى جهاز الهاتف. أول رنين يتردد فى فراغ الغرفة العتيقة، فى فراغها العبق برائحة غامضة، خفية المصدر، للحظات خشيت رفع السماعة، لكن خشيتى أن يكف تدفعنى..

أنطق مبادرا..

مامن صوت، مامن مجيب، صفارة متقطعة تتردد، إشارات، أصداء لا أدرى مصادرها، أخشى ركض نبضى، أبطئ أنفاسى، تذرى نعاسى، من.. ترى من؟، هل يريد أحدهم التأكد من وجودى فى الغرفة؟ جزء من مراقبة الأجانب، أو اتصال ضل طريقه إلى؟ خواطر متتالية، احتمالات شتى، لو أصغى إلى الرنين مرة أخرى، حتى وإن تكرر الصمت، لكن.. تتوالى الثوانى، الدقائق مخلفة عندى الحيرة والبلبال.

طار النوم عن عينى، كثيرا مارددت أمى تلك العبارة بنصها فى الزمن القديم، نطقتها بصوت مرتفع، إيقاع مماثل لما سمعته منها، حتى بدا وكأن صوتها ينبعث منى. مططت شفتى.. كأننى أشرع فى مخاطبة آخر لا يبين يمثل أمامى.

كم انقضى بالضبط؟

كم.. مقدار الوقت الفاصل بين الرنين الأول والثانى. هذه المرة لم أنتظر. على الطرف الآخر، من مكان أجهله، من خلال وضع ما، تسلمت بريد صوتها، هى.. أعرف تضاريس نبرها مهما خفت أو نأى. تلك تموجاته، ظلاله، مذاقه، فكأن شهورا عديدة لم تنقض، ومسافات لم تفصل، وبيد دونها بيد لم تعبر، قالت إنها بذلت جهدا حتى عرفت رقم غرفتى.

بعد نطق الجملة الأولى صمتت لحظات، قلت إننى غير مصدق. فوجئت بسؤالها:

ـ ترغب رؤيتى؟

صحت:

ـ لهذا جئت..

قالت:

ـ إذن.. الآن.

نطقها مختصر، دال، حازم، أجبت منساقا.

ـ أين.. كيف؟

قالت إن الليل موغل، الثانية صباحا الآن، حضورها إلى الفندق صعب، لكن هناك مخزن مشهور للبضائع، مجمع ضخم، مجمع ضخم يعرفه سائقو عربات الأجرة، قريب جداً من بيتها..

ـ لحظة..

ورقة، قلم، كتبت ماتمليه على، قالت:

ـ بعد ثلاثين دقيقة سأكون أمام المخزن..

كررت:

ـ بعد ثلاثين دقيقة..

تدفقت، وقفت عاريا لثوان تحت المياه الباردة، تطلعت إلى سترتى التى سألقاها بها، أحكم ثيابى بأصابع مرتعشة، جواز السفر، هل أترك النقود فى الغرفة؟

لا.. من الأفضل أن أصحب ما أخشى عليه، أخرج مجتازا الممرات الطويلة، الأبواب مغلقة على أسرار شتى، أصوات صادرة من إحدى الغرف، فى الصالة الرئيسية تتمدد مشرفة الطابق فوق أريكة مستطيلة. أبتسم معتذرا، تتطلع إلى دهشة، مستديرة الوجه، شرقية الطلع، متصلة الحاجبين، سلمتها المفتاح. تناولت البطاقة الصغيرة التى لايمكن لى اجتياز البوابة الخارجية بدونها.

برودة منعشة. ساحة ممتدة شبه خالية، ثلاث عربات أجرة فى الانتظار، اتجهت صوب سائق قدرت تجاوزه الخمسين، رحت أنطق العنوان، اسم الشارع، المحل. كتبتها بحروف عربية كما سمعت منها حتى يسهل على ذكرهما، هز رأسه مرتين، جلست إلى جواره، بعد استدارته استقبل ليل المدينة خافت الضوء، كثيفة الأشجار، تتوه طرقاتها فى العتمة، مبان ضخمة لكن مصمتة.. أجهل الدروب والمنافذ، أيضا الوجهة، لا أعرف أى سبل مؤدية. أطأ هذه النواحى أول مرة، لم يسبق لى المرور ليلا أو نهارا، أجهل لغة السائق. لا أستفسر إذا توقف، أو اذا أبطأ، إذا سلك هذا الشارع ولم يعبر ذاك، لا أعرف أين الموقع على وجه التحديد، ولا المسافة التى تفصله عن الفندق، لم أعرف إذا كنت أمضى يمينا أو شمالا، تداخلت على الجهات. أوغل ليلا صوبها، لا يعنينى مايمكن التعثر فيه. مايمكن أن يعيقنى. المخاطر المحدقة، أتحول إلى كينونة متطلعة، متلهفة، أتساءل، كيف ستبدو؟ كيف سيقع بصرها على، هل أتحمل انبثاقها عندى، قوة وروده على، أى كلمات ألفظ، أى نبر أتكلم، أى حوار يجرى؟

تقل السرعة، فى حركة السيارة وعد بالوصول، بشرى بالقرب، يتطلع السائق إلى المبانى، يتوقف قرب مظلة، محطة حافلات عمومية. يشير إلى بناء ضخم، مستطيل، عريض الواجهة والنوافذ، تعلوه لافتة تضئ بلونين أزرق وأحمر، إذن.. أصل إلى الموضع المحدد.

عربة شرطة تمضى متمهلة، يضوى المصباح الأزرق فوقها فى حركة دائرية، تتوقف على مقربة، ينزل منها جنديان يتفحصان شيئا ما. وجودهما على مقربة وتحسسى جواز سفرى فى جيبى يبعث عندى ثقة هجير ليلى وموضع لم أتوقعه، رغم تأخر الساعة إلا أن الحركة غير معدومة، شابان وامرأة يمضون فى الاتجاه المقابل.

لم أفارق العربة. تطلعت إلى السائق، أشرت إلى الساعة. إلى الخارج، صوب الجهة التى جاءت منها وكأنى كنت أعرف، ما أثار عجبى أننى لم ألتفت إلى الجهة الأخرى قط.

حافلة تتوقف أمام المحطة، لا ينزل، لا يصعد أحد، لو انتظرت تحت المظلة فلن يلفت ذلك النظر، الحركة تستمر حتى هذه الساعة المتأخرة، ألم بالمكان كله مع أن الليل وظلاله الثقيلة وكثافة الأشجار تخفى عنى الكثير، موضع لم يدر بخلدى أننى بالغه، فوق نقطة منه سنلتقى، كم عبره قبلنا وكم بعدنا؟. لو مررت به بدون ترتيبها لما عنى شيئا بالنسبة لى، لكنه منذ انتظارى هذا سيمثل بذهنى ويعلق. كيف سأستعيده، فى أى لحظات من صحوى أو نومى سيرد على. هذه المبانى، تلك الأشجار، الحشائش الخضراء التى ينعكس عليها ضوء النيون، البلاطات المربعة المتساوية، الواجهات المتشابهة، أعمدة الإضاءة القديمة، المصائر وراء الجدران، الناس الذين أجهلهم، السائق الصامت، لا يعرف التراث الكامن عندى، موقع هذه

اللحظات مني، غريب أمرى! يحل بى هدوء، تنزل على سكينة، كأننى أرقب الوقت من خلال شخص آخر أعرفه ولا أعرفه، عند دنوى من اللحظات الفاصلة يبدو ما سأشهده، ما سأمر به وكأنه يخص غيرى، حتى إذا فارقت ونأيت وصار وصولى اليها صعبا. وإدراكى المكان مستحيلا، عندئذ.. أستعيد أدق التفاصيل، أعيشه مرات، تثقلنى المرئيات المستعادة حتى لا أقدر على تحملها فأفارق مرقدى أو مجلسى، أنأى عن صحبتى، كأن انتقالى من مكان إلى آخر يخفف ويسرى.

مالى، موزع، مذرى، ضائع بين استعادة ماكان. والتطلع إلى ماسيكون، حتى إذا تحقق الأمر أنظر إلى مايكون من موقع زمنى منبت، بعيد، أحض نفسى على الاستغراق، التطلع صوب الآتى.

أوشك على النظر إلى أعمدة المصابيح، أصغى متلمسا دبيب اللحظات التى تعبر المكان أو يعبرها.. لا أدرى؟، ماموقعها من الزمان؟ أى مواضع تتخذها النجوم القصية الآن؟ أى مدار ينتظم فيه الفلك، فى أى حيز تحوم أرواح الراحلين؟. تلوح لحظة حنين إلى شذا قديم، خفى المصدر، أوشك على.. على.. هى..

انبثاق، انبلاج، يتفتق ظلام الليل عنها، تحديد البداية وعر، غير أنى ألمت بانبثاق خطوها من سور العتمة، رأيت إقبالها، اقترابها، خطوها، تدفقها نحوى، لمدى طويل أمضيت الوقت متوقعا ذاك الأوان حتى كدت أكل.

ها هى..

ماثلة، شاخصة، تسرى، تسعى. تبلغنى كنبأ جميل، سترتها قدت من صوف أزرق، أحمر، أبيض، أسود. أصول الألوان وجذورها، طلعها يلغى سائر المكونات، أتطلع، أوشك على الجموح لكننى لا أحدد ولا أحيد.

أنتبه إلى ثباتى وإقبالها!

وقوفى ليس من علامات الأدب مع المحبوب حتى وإن جمدنى البهت، أواجهها بكافتى. بكلى. اكتمالها يمحو ماعداها خاصة عندما رست عندى ورسيت عندها، جثوت، مستسلما، راضيا، متأهبا، محاولا استيعاب فاتحة هلاتها فى دورتها تلك..

ـ ٢ ـ

«مكان محدد، مطروق، موضح على خرائط المدينة، ساحة منبسطة، مبلطة بالحجر، تمتد أمام الحصن القديم، مقصد الزائرين، ملتقى أجناس شتى، علامة رئيسية بالمدينة، حددنا الباب الرئيسى القريب من النهر، أما الوقت فتمام الواحدة، مجرد نقطة لقاء، بعدها نمضى إلى مقهى قريب، هناك تقدمنى إلى زوجها، لم أقتنع باللقاء المقترح، هذا مخالف لكافة ماجبلت عليه، لم أدر كيف ستتم المواجهة. كيف سأتصرف، وددت استبعاد هذا الترتيب، لكنها أصرت. قالت إن حياتها تمضى

فى خط مـواز له، وأن الفتور واقع منذ مدى، ومـايجـرى عندها لاتعـتـبـره سـرا، ولا تريد إخـفـاءه. لماذا تكذب؟. ليس عندها إلا المصارحة، حتى يكون مايكون، قالت إنه كان يمضى أجازة فى الريف عند صـحب له، كتبت إليه تنبئـه بوصـولها، بعد عودته جرت مـحـاورات عديدة، كنت أنا موضـوعـهـا ومرتكزها، عسر على الفهم، وعندما أبديت تحفظى قالت:

ـ من الأفضل أن يتم كل شىء فى الضوء.

أتطلـع حـولى، لنصـوع حـضـورها أعـشى عـمـا عـداها، لا أتوقف عند مـلامح أخرى مـهـمـا بدت مبـهـرة. ليس مثلهـا مثل متفردة. بعد خمس دقائق تلوح، أحرص على وصـولى مـبكرا، هى يجب أن تنتظر لا أن تنتظر. أدور حـول المبنى، أقف عند الركن، خلف العامود الرخامى، أود مشاهدتها قـادمة، مطالعة ظهورها على غير علم منها، رصد انتظارها، قلقها، تصرفاتها، تجىء دائما فى مواعيدها. دهشت.. كيف تضبط حركتـهـا مع استخدامها المواصلات العامة، ومجيئها من مسافة بعيدة، ترى من جاورها فى المركبة، من وقف على مقربة، من دنا ومن نظر؟

ـ تختبئ ؟

تلمس كتفى، أستدير، تتلألأ عيناها، تضوى بحبور إنسانى نادر، بريق هادئ، تألق لايمكن لهذه اللحيظات أن تحتويه. وتلك المعانى، أومئ برأسى غير ملم بما أريد التعبير عنه، انبهارى، وقع المفـاجأة؟ مجيئها من حيث لا أحتسب؟ أو أسـاى لإدراك

زوال اللحظة ومروق المعنى، أو لعجز النطق عن إسعافى. أم لأن ألقها وفيضها غمراني، مع وهن القدرة على التصريح، كدت أتبسبس خفقا مع دوام تطلعها.

ترفع حاجبيها مع انفراجة يسيرة من شفتيها، وهذا تكوين يدنو بها من سر الزنبق، وسريان اللون فى المتلون، سبحان من جعل الإنسان قادرا على تغيير العتمة وتبديد الظلام، أما الضياء فلا يمكن تحويله. أو تغييره، أو تبديله. تطلعت صوبى.

تتساءل بصوت منبعث عبر درجة أو طبقة يستحيل إدراجها أو تعيينها:

ـ ماذا؟

بصدور نطقها عنها اكتمل سطور نظامها الخاص، لم أجب، إنما استمرت حركة رأسى، متأنية، نادمة.

ـ ماذا؟

تنبعث عنى حيرة، كنت متبددا فى مواجهة هلتها المفاجئة تلك..

ـ٣ـ

.. سطوع بدون نهار، العاشرة ليلا والمساء خفى، اعتدت ذلك. مرة أخرى أطأ الموضع حيث أهلت على أول مرة، اقترحت تسميته المكان التاريخى، صفقت بيديها مرحة، مسرورة. يبدو

وجهها الطفولى سافرا بخباياه، عذوبتها البكر لم تندثر بعد، مابين لحظة وأخرى تتبدل. تتغير. مرة طفلة وتارة أنثى مكتملة. تضحك ولكن فى أصدائها نحيب لايرى.

جئت مبكرا، آثرت المشى، إلى الاتجاه الذى قدمت منه، أمضى حتى تقاطع الطرق، هنا افترقنا بعد لقائنا الليلى، قرب مشرق الشمس، وطلوع الصبح، عدت إلى الفندق مكتمل الطاقة، قادرا على الشروع مع أنى أمضيت ستا وثلاثين ساعة بدون نوم، تماما كزمن فتوتى، عندما كنت أصل جهدا بجهد، لا يدركنى ملل، ولا أهاب وقوع التعب وإدراك النصب، أينعت عندى منابع ظننت جفافها منذ أمد، كلما استعدت فاتحة هلاتها فى دورتنا تلك، يخف وجودى الحسى حتى لأوشك على التحليق والطفو، استأنست بصوتى فكنت الشادى والمستمع معا.

بعد مفارقتها بدأت استرجاعى لظهورها، لطلتها، لتوقعها، لإشراقها الليلى، فرأيت مالم أقف عليه عند وقوعه، وفهمت ما استعصى على لحظة نطقه، ونفذت إلى جوهر عبارات لن يبقى منها بعد توالى الفترات إلا مضمون عام غير مفصل، لفظ محدد، أو جملة أفلتت من النسيان، لهذا سأشرع فى تدوين ماعلق أثر فراغى من تثبيت هلاتها خشية الاندثار.

ليتنى أدرك قانون الذاكرة!

ليتنى أقدر فأبقى ما أرغب. وأستبعد مايقض ويوجع، قلت

فلأهنأ بفيضها الذى مازال يغمرنى، عبير حضورها المزهر فى دمى، الحق أنها لم تفارقنى، لم أضل عنها، بل إنها على البعد أقوى منها على القرب لكن.. إلى متى؟

أسترجع نوبات عشقى، وأزمنة تتيمى، فأدهش وأحار، كيف يذوى ماظننته لن يبيد أبدا، ويحل موضعه آخر، يمحوه حتى يستخف المرء بما أوشك أن يقضى بسببه يوما، لهذا إقدامى على التدوين محاولا الإمساك بشوارد الوقت، أما زمان الوحدة والتآسى فقادم، أليس كل آت قريب؟

أمر الهوينا بالموضوع مرة أخرى، كأنى ألم بالمعالم أول مرة، لكن. كيف لم ألحظ هذه الواجهة الزجاجية، كذا ألوان المبنى، اللافتة. الأعلام الملونة فوق الممر المؤدى إلى المدخل، فى الضوء تولد الموجودات من جديد، تتغير الهيئات وتتبدل.

تهدئ الحافلات من سرعتها، تتوقف، تمضى، حركة تستمر، وتتصل، لن تتوقف أبدا، كذلك سعى المارة، واللقاءات المرتبة، ونتاج الصدفة، والعبارات التى تلفظ، وتوهجات العيون، واخضرار الأشجار، وطرحها، ثم ذبولها، سيتصل هذا كله بعد غيبتى، ستتم الدورة، ولكن وجودى مختلف، مغاير، ناء، أما هى فعيناها ستقعان على هذه المرئيات مرات عدة فى نهارات وليال متعاقبة، لاأدرى كيف ستستعيد أمرى، ولا كيف ستبدو صورتى فى ذهنها، وأى أوضاع مثلت فيها أمامها ستحتفظ بها فى أفق وعيها. كنت جاهلا، سأتشكل عليه فى مناماتها، كيف سأبدو؟ ومن أى جهة سأفد؟ وأى أصداء ستبقى عندها،

أى ألفاظ نطقتها على مسمع منها ستتردد عندها وبأى وقع وأى نبر عندما أصير فى جهة وهى فى أخرى؟

أتجه إلى مظلة المحطة، أتوقف قليلا متطلعا إلى الجهة التى تأتى منها الحافلات، تهب النسيمات، عند تطلعى إلى شابة تمسك بيدها سلة ملونة.. يتردد اسمى.

هى..

قادمة، لكن.. من الناحية الأخرى، عكس الجهة التى أهلت منها المرة السابقة، مسرعة تأتى، تميل قليلا إلى الأمام، الهيئة التى أستعيدها بها، إما على حافة، أو فى سموق علوى. بيرق أنثوى ينشق ظله، مهفهف، مرفرف، أصبعها مشرعة إلى الأمام.

تتجاوزنى متطلعة، أتابعها دهشا، حائرا، إلى أى شىء تشير بأصبعها؟ لكنها بعد تجاوزى بثلاث أو أربع خطوات تنثنى راجعة صوبى، أثبت، لا أميل، لا أتلفت.

تنثنى مقبلة، رحبة. مشعة. تتساءل:

ـ ألم تر أبى؟

ـ لا.. لم أره..

ثم استدركت:

ـ حتى إذا قابلته فلن أعرفه.. لم ألتق به.

يستمر تلفتها، تقول إنه أحضر بطاقات دعوة إلى حفل موسيقى.

قلت إننى لمحت رجلا متقدما فى العمر كان واقفا منذ عشر دقائق لكنه ركب عربة أجرة. تتجاوزنى بنظراتها. لم تستفسر عن ملامحه. تتلفت، تدعونى إلى عبور الطريق، عندما حاذيتها تطلعت إليها، تبتسم، فيما بعد تساءلت، لماذا تساءلت ولماذا مضت فى سيرها، هل قصدت التمويه على شخص ما؟

تقول:

ـ البيت قريب.

ينضج صوتها بالوعد اذ يتردد همسها:

ـ الليلة.. أنا بمفردى.

ـ ٤ ـ

لم أغف حتى!

لم أنم، أصغيت إلى تنفسها الهادئ، المطمئن، الآمن إلى جوارى، حاذرت التقلب أو إبداء القلق الجثمانى حتى لا أزعجها، ولجت نومها بيسر، أما أنا فاستعصى على الوسن، ربما لاغترابى أو لهيبتى حضورها، واقتران عالمى بعالمها، مع أن تكوكبنا أمر وقع عندى بالخيال، فلكم طالعته، وتمنيته، وحرك عندى ماحرك، وعندما اكتمل فى عالم الحس وجلت وتهيبت فكأن الأمر يخص غيرى.

منذ الفجر، لم يتوقف المطر إلا فى الصباح، قطرات ثقيلة، متتابعة، تشتد حينا حتى أظنه الغرق، أغمض مآقى، مزدحما بهلاتها والتى لم تتوقف منذ لقاءاتنا حتى تردد أنفاس النوم المنتظمة.

عند انفرادنا فى المصعد الضيق، تطلعت نحوى، أقدمت.. قبلتها ممسكا بذراعيها، ورفعت حاجبيها محذرة، مشهرة لحظها ودلالها، انبعثت من داخلها طفلة. مرحة. مقبلة.

قبل خروجنا تطلعت إلى مشجب المعاطف، ينقسم كونها الصغير إلى جزأين. إلى يسار الداخل مطبخ، تتصدره منضدة صغيرة حولها أربعة مقاعد. أوعية مختلفة. مرتبة، منسقة، القسم الثانى إلى اليمين، فسيح الحضور، ضيق المساحة. فراش وثير، تضفى احساسات باتساع المكان، إلى جوارها لافتة قرأتها بصوت مرتفع..

«الأمس مر إلى غير رجعة، غدا ربما لن يأتى، اللحظة هى الآن..»

أشار أصبعى.

«هذا أنا..»

قلت إننى أردد عبارة مشابهة، أكتبها أثناء شرودى وتسهيمى، لا أذكر أين قرأتها على وجه التحديد. أى كتاب؟ أى مصدر؟ لكنها لشيخ ساح فى البرية، سكن الكهوف، والأماكن الموحشة، قال ما نصه:

«الإنسان بين لحظتين، واحدة مضت لن ترجع أبدا، وأخرى آتية ربما لن يصل اليها..»

كثيرا ما أنقشها بعناية، أجمل حروفها، أكتبها بخيالى على الفراغات التى أحدق اليها أو عبرها، عظم يقينى أن انجذابى اليها لم يكن صدفة، وانتظامى فى فلكها لم يكن عبثا.

جلت، طوفت بنظرى، بمشارف ذاكرتى، راغبا، أملا فى حفظ الدقائق، موضع رقادها، مقعدها أمام المكتب، مراجع دراستها المصفوفة، صوان حاجاتها، أسطواناتها، أريكة مستطيلة تحت النافذة، هذا فراغ يحتويها، السقف غير المرتفع، مرسى نظراتها عندما تستلقى، تطلق العنان لشطحاتها، لتأملاتها، كل يوم تقع عيناها على تلك الجزئيات.

أنتبه إلى وقوفها.

تتجاوز فراغ الباب بسموقها، بتأججها الداخلى الذى يتخطى محدوديتها البشرية، يفيض حتى أكل عن احتماله، أو الإلمام به أو وصفه.

أستفسر، كيف تتحرك فى هذا الحين، أين مكانها المفضل؟ كيف ترقد؟ على أى وضع تستريح؟ حتى تتطلع إلى قمم الأشجار المرتفعة؟

تصغى. نورانية الطلع، صامتة الحضور، أما غمازتيها فتم بهما المعنى الذى لم أقدر على تفسيره، بملامحها تأثر غامض،

قالت فيما بعد إن أى إنسان غيرى لم يهتم بالتعرف على هذا كله.

طفت المكان الذى ربما لن أشهده إلا فى الذاكرة، العجيب أننى لم أكن مستنفرا بسبب الانفراد. مع أن مجرد استدعائى لحضورها بالخيال المحض كان يؤجج حواسى. فكأنى ذلك الرجل الذى سافر مسافة قصية إلى شيخ مهيب، عرف بصلاحه وتقواه. طلب منه أن يقيم فى خدمته سنة كاملة، لا ينقطع خلالها عن الصلاة والعبادة. قبل الرجل طمعا فى وصوله إلى سر تحويل التراب إلى تبر أصفر، بعد انقضاء عام استدعاه الشيخ، سأله: هل أنت على استعداد؟ سأخبرك بالسر.

عندئذ.. بسط الرجل يديه قائلا:

ـ كفى.. لم أعد فى حاجة إلى ذلك!

كنت محايدا، وكأننى خارج الخطة، كنت مولها، مشدودا، متأثرا، ولأننى تخيلت مطولا ما أمر به، وقع عندى عدم تصديق لاستحالة ذلك زمنا طويلا.

تبتسم.

تشير إلى المطبخ:

ـ لابد أنك جائع..

المكان رحب رغم محدوديته، أستند بظهرى إلى المقعد، من الثلاجة تتناول قالبا من لحم مطحون، محفوظ، وسكينا، تبسط

الشرائح فوق رقائق الخبز، تسفر فى ابتساماتها، لفتاتها، طلاتها الجانبية، هذا الفيض يهل علي، مجهول المصدر، تارة من صوتها، مرة أخرى من نظراتها، من نبرها، من فرد قامتها فجأة، مع تراجعها فجأة، كنت مستكينا، هادئا، مراقبا لسريان الوقت بيننا، لماذا الهلع، لماذا الوهج، لماذا القلق إذا كانت ماثلة أمامي، على مقربة، فى المدى.

أكاد ألمس ضيق المدى مابين أمنياتى وتحققها، راحت، جاءت، عند تنسمى عبيرها الكلى لحظة مرورها قربى أمسكت يدها.

تطلعت راضية. باسمة. حطت فى نطاقى، وقفت فجأة، قالت إنها تود أن تريني صورها، عادت إلى مرساها، قالت إنها تتمنى اطلاعى عليها. راحت تقلبها، كنت مابين تأملها وتجرع عبيرها. موزعا، حائرا، هاهى طوعى وأنا طوعها، غير أن هاجسا هنا مغبشا لحظات الوداد. كيف سأستعيد ما أمر به بعد تجدد الفقد،. وابتعادى، أدرك استحالة الاستحواذ، عقم إدراك الإدراك، رحت أتأمل صورها، طفلة، شابة، والديها. صاحباتها، لحظات أجازاتها، مناسباتها. وإذ أتأمل كل منها أسأل ذاتى، أين كنت لحظة التقاط هذه أو تلك؟

فجأة قامت، لم تبد تفسيرا، لم تفه حرفا، فتبعتها، قعدت على حافة الفراش. تخففت من سترتى الصوفية، من حذائى، عندما حاذتنى متجهة إلى المطبخ أحطت معصمها بيدى، أجلستها بجوارى، حدقت، تعلقت، تهدجت، كنت على شفا

عينيها، طاقتان من ماس مصهور يشع ألقا، كنت أرى شرايين وأوردة وشعيرات دفق الحياة التى تتخلل وجهها، شفتيها، جبينها الأشم، كذا غمازتيها فى سكونهما، فى حركتهما، مآقيها تفيض بالوداعة، مقلتاها تنطقان بالسكينة. بالطمأنينة.

تقول بنطق همسى، قادم من هناك:

ـ «ترغب الآن؟»

حركت رأسى نفيا.

ـ «لا.. ليس الآن..»

توقفت لحظتين، تابعت.

«أرغب من زمن بعيد، قبل أن نلتقى، أثناء قربى وبعدى، وفى الآتى الذى لن أدركه..»

تهل على بهيئات لم أعهدها، لم أعرفها منها، هلات ذات خصوصية، شمولية، علوية، تتجاوزنى إلى ماوراء حضورى الآتى إلى زمن حضورى، وأفولى، أو تمردى وثورتى، وسعيى إلى المدى.

كان نبضها يتماس بنبضى، فلا أدرك كلا منهما على حدة، تنفرج شفتاها الريانتان، تطل ملامح من أسنانها، لآلئها، يزداد اقترابى. ينفصل مكان حضورنا عما يتصل به. نمعن فيتجدد خلقى..

\- ٥ -

.. بقايا مطر، خضرة مرتوية، للهواء شفافية ناصعة حتى ليرى، يوم أحد، المدينة هاجعة، حركة محدودة وسريان خفيف. درت عند المنحنى، طريق ممهد. رصيف عريض يتوسطه، نبتت الحشائش من الفراغات الفاصلة بين بلاطاته، مضيت متمهلا، واثقا أننى سوف أسترجع هذا الوقت مرارا، سألوذ به وأستدعيه تهدئة لى، وتصبيرا لقلبى إذ ينوء بالوحدة وثقل الفرقة، وغرابة الظرف.

قبل خروجنا طلبت منى أن أتقدمها، لاترغب انصرافنا معا اتقاء ودفعا لفضول الجيران، خاصة النساء منهن، أمام الباب رأيت امرأتين، الأولى عجوز، والثانية شابة، لم يلتفتا، لم يبديا اهتماما، لم تتوقفا عن الحوار عند محاذاتى لهما، كنت راغبا فى التحقق من ملامحهما، ألا يقيمان على مقربة منها؟ ألا تراهما فى أوقات متقاربة؟ ألا تعيشان فى البناية التى تضمها؟

مضيت متمهل الخطا، هل سأعود إلى المكان مرة أخرى؟ درت عند المنحنى، التفت، لم تبد بعد. كنت مرهقا، متعبا، لم أغمض عينى منذ الأمس، غير أن تردد اللون الأخضر بدرجاته وبرودة الهواء الخفيفة، وخلو الطريق وتوقعى ظهورها، أثار هذا كله عندى دفقا وحيوية.

هاهى.. متوحدة، منفردة، مامن أحد إلاها، بينها وبين الشجيرات وشائج وصلة، لخطاها وقع، أصغى، هذا صادر عنها، كأنها تتقدم صوب خلاء ممتد، لم أذكرها ولم أرها بعينى

مخيلتى إلا دانية من حافة فاصلة، ابتسامتها تهل على، لتلك الابتسامة تقلبات ومظاهر شتى، صعب حصرها، عسر وصفها، لكن ابتسامتها تلك بدت لى مختلفة عما سبقها.

أدرك صلتها، اتجهت صوبها لألاقيها فى منتصف المسافة، الأولى فى الصباح التالى لليلة اقترابى، وطوافى، وامتزاجى الكلى، كل ماسيبدو منها له وقع مغاير منذ الآن، غير أننى لمحت شيئا ما يؤطر هلتها الديمومية، استعصى على تفسيره، ثمة اتصال وثيق خفى مابين شفتيها وعينيها، وحضورها غير المدرك بالحس، أسرعت الخطا، حاذيتها، تجاوزتها فى الاتجاه المعاكس، لم ألفظ حرفا، كأنى عابر، غريب يجهلها، انثنيت لأتبعها، تقدمت، صرت إلى جوارها، بدأت نطقى من موقع الاغتراب، كأننى لم ألتق ولم أصافح ولم أصغ..

ـ أيمكننى الحديث ياسيدتى؟

هلت على بتطلع جانبى، تستمر ولا تتوقف، قلت إننى عابر غير مقيم هنا. جئت من بلد بعيد، من قارة أخرى، مسافات قصية تفصلنا، ونظم مختلفة، وإجراءات. وترتيبات، لكننى إذ رأيتها الآن فوق هذا الجزء من طريقى أدركت أن مصيرا بأكمله تحدد. ذكرت اسمى، وموطنى.

توقفت، تطلعت صوبى، غمرتنى هلتها على القرب فكدت أشب، وأدركتنى على البعد فكانت الباعث على خفق قلبى، تلك

هلة لزمتنى. فكانت أول ما أفيق عليه عند صحوى، وآخر ماأتعلق به قبل إغماض عينى، قلت هادئا:

ـ أدعوك إلى حياتى.. هل تقبلين؟

فيما بعد.. أحطت علما أن ذلك الألم الخفى أسفر مطلا فى ذلك اليوم، أخفت ذلك عنى، لم يتبق إلا يومان وأغرب عنها، بذلت جهدا غير يسير لقمع تلك الطرقات التى لم تعرفها من قبل، وأشد مايخيف مالم نعهده، أرادت أن تبدو هادئة، متألقة، دائما كما أحبت أن أراها، بعد أن عاتبتها عبر الهاتف، عبر رسائلى، عبر المسافات، جاوبتنى:

ـ لم أشأ إزعاجك بينما سفرك قريب..

بعد لحظات قالت:

ـ لكن يبدو أن قلبك حدثك بشىء ما، إذ خاطبنى فى الطريق كغريبة!

ـ كنت أمزح..

تسلمت بريد ضحكتها الواهنة، المتعبة، الآيلة.

ـ هل تذكر؟

أومأت كأنها ترانى، كأنها على مقربة، مع أنها تهل على عبر الرؤى والأطياف..

.. السابعة إلا دقيقة.

وقت ذروة، جمع يتوافد أفراده لحضور حفل، أقف أمام مدخل الفندق، أرقب الوجوه، الملامح دائما معبرة، العيون تبحث عن المنتظرين، اعتدت تأملها عند بوابات الفنادق التى أمضى فيها أوقاتا عابرة، كذا مخارج المطارات. محطات القطارات، الموانئ، صالات الاستقبال فى المستشفيات، دائما.. الملامح متأهبة، متوقعة لنبأ، لفعل ما.

ضوء النهار ساطع مع أن الليل بدأ، نهار بدون شمس، عربات تتوقف، البنايات المقابلة مغلقة النوافذ، مامن شرفات.

عيناها فى مواجهتى..

احتجاج صامت، تتكسر الأشعة فى حدقتيها فيبدو جوهرها العصى، لايمكن تحديد انتماءات الألوان، متداخلة، متغيرة، سنية الأوج، قالت إنها جاءت منذ عشر دقائق.

لم أجب. طال تحديقى، هلة مفاجأة، مباغتة كأنها انفجار ضوئى صامت يشملنى شيئا فشيئا، كنت فى حاجة إلى استيعابها على مهل، بما تحويه من ترقب، وتحفز، واستعداد مسبق لملاقاتى.

قالت إنها لاتحب الانتظار بمفردها.. خاصة أمام الفنادق.

تطلعت محاولا تثبيت الجزئيات، نفور شعيراتها، انفراجة

شفتيها، تحفز غصنها، عدت أتطلع إلى اللحظات المنفلتة من موقع متخيل أكون فيه نائيا، قصيا، غير قادر على تنسم وجودها وإدراك أصولها، تدارى احتجاجها البادى، تسفر عن ودها. تتساءل عن صمتى، تتوارد على الصور، التى بمفردها تنتظر قرب النيل. حرجها باد، عندما بدا صاحبها بسط يديه على امتدادهما، لمحت العتاب فى انتصاب قوامها، أدركنى سرور غامض، رؤية عاشقين يلتقيان تشع بهجة وتبوح بوعد ما. لكم حرصت على استيعاب خطوها المتدفق صوبى، فلسعيها ألق، ولقدومها القدرة على فك إسار، تضوى فى مواجهتى مع أن ملامحها جادة، بها مس من عتاب وربما غضب، المفروض أن نمضى إلى ملاقاة صاحبة لنا لنسلمها أوراقا خاصة ببحث تعده، لكننى أدركت من بزوغها، من هيئتها، أنها جاءت من أجلى، وأنها اجتهدت ليتم بهاؤها، وأنها لم ترتد هذا الثوب إلا لأننى أبديت إعجابى بدرجة لونه، وأنها قدمت لتمضى وقتا أشمل..

ـ ٧ ـ

لكنها فى هذا العصر تأخرت، موعدها الثانية، عقارب الساعة أشارت إلى النصف بعدها، لا تتقن والدتها إلا كلمات محدودة من الإنجليزية، أشارت إلى فمها..

ـ الطعام..

أنفى بهز رأسى، أشير إلى الباب، أذكر اسمها: عندما

تجىء. تقوم متجهة إلى نافذة الغرفة الجانبية المطلة على الطريق المؤدى إلى مدخل المبنى، كدت أغفو بتأثير إرهاق كامن، أو قعدتى، أو هدوء المكان، فى الثالثة والربع أطلت مبتهجة..

ـ إنها قادمة..

إذن.. مجرد لحيظات وتهل.

انتظارها المصعد، ولوجها، ضغطها زر الطابق الرابع عشر، اجتيازها الباب، مثولها أمامى، غدا، فى مثل هذه اللحظات يبدأ شروعى العودة إلى موطنى الأصلى، أمضى إلى مكان، وتبقى هى فى آخر..

أصغى إلى تكة القفل.

لم تدخل، إنما انبثقت فتفتحت فى الحين، قوامها الفاره يميل وكأنها على وشك أن تبدأ العدو، أو تقدم على وثبة كبرى، فى مواجهة تفجرها بدا هدوء تقبلى له، كنت مثقلا، لا أبدى من الانفعالات مايوازى اضطرامها، وهذا حال يغلب على فى اللحظات الصعبة فيظن من يجهلنى جمودى، وانعدام مجاوبتى، مع أنى أترقرق، أدنو من الشروع فى البكاء، لكننى كظمت.

البيت هادئ، صامت، لكنه سيكون مختلفا عما كان قبلها، يفيض الفراغ. تتحرك هنا وهناك، تعد المائدة من جديد، ترتب

المقاعد. تشير بأصبعها متداركة أمرا، تبسط محتويات الحقيبة، أشياء صغيرة جميلة، تماثيل دقيقة من الجبس أو الرخام، مفارش منمنمة، لوحات من خشب محفور، قالت إنها تأخرت لهذا، بسبب ذهابها إلى متجر التحف والعاديات.

ـ لكن اليوم أحد..

قالت إن المتاجر تفتح يوم الأحد الأخير من كل شهر. قالت إنها طلبت كتابة جملة على كوب من الخزف عبارة «إن شاء الله» بحروف لاتينية ونطق عربى، سألها مدير المتجر، هل هذا اسم شخص، تطلعت إليه صامتة، قالت إنها ترجونى مصاحبة هذا الكوب، أن يمثل أمامى، فى مكان أستطيع رؤيته كل يوم.

أرقبها، هلتها مستمرة، كأنها وصلت لتو، أو تبدو من جديد فى كل لحظة، سددت إليها غموضى وحيرتى..

ـ لماذا تبدو حزينا؟

أموه ابتسامة، قالت وكأنها مدركة لجملة بواعثى:

ـ لكنا سنلتقى.. ألن تجىء فى أكتوبر؟

دنت منى، جرعت نسيمها حتى شبع صدرى، أشارت إلى قميصها ذى الحواف المزركشة..

ـ أول مرة.. من أجلك..

سمقت فجأة، دارت دورتين!

ـ ما رأيك؟

ـ رائع..

من ملامحها أدركت أنها تكابد مالا أعرفه وتؤثر انعدام البوح.. مالت تجاهى بغتة، قبلتنى، تراجعت قليلا، تلألأ الضوء متكسرا فى عينيها، حاضا لى على السعى..

ـ ٨ ـ

.. لم ينفد أملى رغم اجتيازى أول حاجز، دخولى المنطقة التى لا يتواجد بها إلا المسافرون، جنسيات شتى، حضور خاص لأماكن العبور المؤقت، الضوء، حركةالعابرين، جدية الوجوه، التأهب، حقائب تنتظر الميزان، عقارب ساعات تشير إلى توقيتات أماكن مختلفة من العالم، اللوحة العريضة السوداء توضح حركة الطائرات الراحلة، تلفت مرة أخرى، لم أرها، المودعون كثر، لكن لا أثر، يبدو أن ثمة أمرا أعاقها، وعندما قدمت بطاقتى وجواز سفرى ودفعت بحقيبتى، بعد انتهاء إجراءاتى وتأهبت لعبور الممر الضيق، القصير، عندما دنوت من النقطة التى سأعبر عندها بوابات التفتيش إلى قاعة الانتظار الأخيرة، المعزولة، أدركت هلتها بدون وقوع نظرى عليها!

بين الواقفين، ملامحها. قسماتها، خصوصية حضورها، حلت بكل الحضور، وفاضت بقسماتها على كافة الملامح فلم

أر عداها، ولم ألح إلاها. كانت تهل على من كل صوب، تأتينى من كل فج، مع استحالة الوصل، فالإقلاع وشيك..

ـ ٩ ـ

خطوها، بسوقها، إقبالها، ولوجها القاعات، ظهورها فى الفراغات، مثولها، نفيها سائر الموجودات عداها، ازدهار خضرة الحدائق بها، وانتماء صفو اللحظات الجميلة إليها، تمهلها فى المعرض، إطالتها النظر إلى أثر تبقى منذ آلاف السنين، إصغاؤها إلى الشرح، انبهارها، ظهورها، هلتها الأولى المفاجئة رغم شخوصها أمامى.

متى:

متى جرى ذلك؟

صعب القطع، وعر التحديد، لا أدرى متى وقعت عيناى عليها أول مرة، متى هلت؟ متى انعكس حضورها المادى فى حدقتى، لا أقدر على التعيين أو تحديد البزوغ، بدء سريانها فى عمرى المحدود، مامن علامة فارقة يمكنها أن تحيد أو تؤثر، مؤكد.. يقينى، شروقها على قبل هذه اللحظات، عند دخولنا صالة المتحف الرئيسية، لكننى أثق من معرفتى لها قبل ذلك.

متى لاحت أول مرة إذن؟

أعجز عن التحديد، عن القطع، هى قديمة بلا شك.

كـانت تخطو فـارهـة، مطلة على مـايحـيطنا. لايرقى إلى حضورها حضور. ولا يدانيها وجوه، يداها فى جيبى معطفها الرمادى مرتفع الياقة، تميل أمام تمثال، أو تتوقف عند لوحة، تتوحد، تشرد عن الجمع، حتى عند اندماجها بالآخرين يستمر بسوقها وتفردها.

هذا المســاء باق عندى، لاتبـهت تفـاصـيله، مع أن آلاف الأمـسيات التى عبرتها بحضورى الكينونى اندثرت، لم يبق منها تفصيل، كأنـها لم تكن، تطلعت حولى قلقا، كنت أعى مايطرأ على ملامحى، من انفراج، وضيق.

فى تلك الليلة نظرت إلى الموائد ومـاتحـمل، إلى الأطبـاق والأكواب والزجاجات وما تحوى، إلى الخطين الأحمر والأزرق، إلى زمـلاء السـفر، بدأ بعضـهم فى سكب النبيذ، أو التـهام السلطة. نظرت إلى المقعد المجاور الذى حرصت على ألا يقر به أحد، أسندت اليه حقيبتى الصغيرة، لم يدن منه آخر.

دقـائق ثقيلة تمضـى، ومـر على تحـملهـا، أضيق بهـا إذ أستعيدها رغم المسافة المكانية والزمنية، تبدأ الهواجس والظنون، لم تبدأ خطوط الوصل بعد، لم تحل لحظات التماس، إنما مجرد محاولة مبذولة من جانبى، قد تتصل أو تنقطع فى أى لحظة، تسـاءلت: فى أى مكان هى؟ فى الطريق؟ أى ناصية إذن؟ أى شارع؟ بمفردها؟ أو تلزم صحبة، إذن.. من ؟ صاحبة أو صاحب؟

أحنيت رأسى، فى هذه اللحظة بالذات سرى هبوبها إلى ، مسنى قبل أن أراها، اجتازت الباب والمساحات الفاصلة مباشرة إلى المقعد المجاور تماما، قمت فأفسحت فمرت، لم تلتفت ناحيتى، مجرد إيماءة سريعة، لا خصوصية لها، ولا تفرد، غير أن سكونا لطيفا محببا شملنى.

عندما توقف المصعد، أضاء الرقم السابع، انفرج شطرى الباب، أهلت، منبلجة الملامح، رحبة العينين، قلت:

ـ لم أرك منذ الأمس..

لاحت وكأنها تشكو، بصوتها مس من دلال..

ـ أمور كثيرة.. كان يجب إنجازها..

ـ هل ستذهبين إلى المقر غدا..

تومئ، تلك الإيماءة السريعة، الدالة، المختصرة، لكم استعدتها فيما بعد، لكم أسرعت أو أبطأت نبضى.

ـ أراك هناك..

ـ الثانية عشرة..

قلت مرددا:

ـ الثانية عشرة..

أضاء الرقم السابع عشر، التفتت محيية، أنتبه إلى وقوف

رجل عجوز، أشيب الشعر. لم أدر جنسيته بالضبط. إلا أنه كان يبتسم برقة، قال:

ـ لطيفة جدا..

دهشت، كيف لم أنتبه إلى وجوده بجوارى رغم ضيق الحيز؟ أو أن هلتها المفاجئة. نتاج المصادفة. أقصت ماعداها عن دائرة وعيي من قبل ومن بعد؟

تلك النهارات، الليالى، الأويقات المجمعة، هذه النواصى، المداخل، الممرات المؤدية، الفاصلة، الغصون العارية، خطوها فوق الحشائش المبتلة، فوق البلاطات الحجرية، الحجرات التى اتسعت وفاضت، هلاتها المباغتة التى لم أعد لها العدة، هلاتها البطيئة القادمة، زمن سعيي. زمن اقترانى، اقترابى، اجتيازها، الإحاطة بى، نثار مكنوناتى.

هلاتها فى الإصباح، العصارى، تحدد أزمنة وتقصى أوقاتا، لا أقدر على إحصائها، خاصة زمن انقطاع رجائى، توحدى، انفرادى، تلوح فجأة، من جهة لم أتوقعها، وأحيانا من جهتين فى وقت واحد، ومعظم الأوقات من سائر الجهات، يطول إصغائى رنوى إلى المتوهم، إلى ظلال حضورها فيقوى على حتى أوشك على ملامستها، أحيانا أنفر واقفا، ساعيا صوب اللامكان، مابين يقظتي واكتمال سباتى أسمع حفيفها ، حضورها قربى، أهمى ظنا منى أنى قادر على تناولها، لمسها، إدراكى الحسى لها، أفيق على هباء فيقوى تهدجى.

أسـعى إلى صـورها، إلى اللحظات المنتـزعـة من العـدم، أسترجع اللحظات المنقضية لأستوثق فلا أقبض إلا الهباء، أما هذا العصر فباق، هفا حضورها على، أيقنت إنها نادتنى، أنها صاحت باسمى من موضع سحيق، أهلت فى أفق وعيى خلال سكونى وحركتى، انتقالى من عملى إلى بيتى، إلى ركنى فى المقـهى، عند عبـورى مدخـلا، عند وصولى، عند لقائى بأقران الفترة، عند تقليبى صفحات، عند مروق الموجودات عبر نوافذ المركـبـات، خـلال طى المراحل، عند بدء خطوى فـوق الطريق المترب، المرتفع، المغمور برائحة التين والنخيل، والمياه الجارية، المؤدى إلى بيوت قريتى، عند رسوى فى المسجد العتيق الذى أوى إليه قبسا من وقتى، ملتمسا التأمل والانفراد، عند سعيى لزيارة مراقد أحباب رحلوا، عند جنوحى إلى حافة الضيق، بلوغى ذروة النصب والعناء، أهفو، أتطلع، أرقب هلة ربما تبزغ فجأة، مع يقينى التام بانقطاع المصدر..

مايو ١٩٩٠

أماكنها

لـيـل الـهـــــــوى يـقـظـان
والحـب تـرب الـســـــهـــــر
والـصـــــبـــــر لـى خـــوان
والـنـوم عـن عـــــيـنـى بـادى
يـــــازهـــــرة الأنـــــس
روض المـنـى مـنـك جـــــذيـب
لـــــولاك لـــــم امـــــس
فـى الـدهـر والأهـل غـــــريـب
نوبة العشاق
صنعة توشيح

مستهل..

.. يشق على ذلك الآن.

توهنني المحاولة، تنال مني، وعر على استعادة اللحظات كلها في تتابعها، في تواليها، إنما أرى كلا منها بمعزل، البعض واضح جلي، أما الأغلب الأعم فغائم، كأنه لم يكن، لم أعبره، لم يعبرني، كأنه تلك الثقوب السوداء في جدار الكون حيث ينتفي الزمان والمكان، وإذ توشك الصفحة أن تمحي، وما كان مني يتبدد ويتذرى، أقدم على التدوين، محاولا استعادة مايوجد الآن، ولكنني لست بالغه، مايمكن لمسه والتحقق منه بالعين، حتى إذا تمكنت من أماكنها أسترجع بعضا من ملامح الوقت، فلا يمكن استعادة موضع إلا من خلال لحظة احتوته

واحتواها..

هكذا أقدم، لعل وعسى!

١

وقوع التماس..

عندى تتداخل الواجهات، تتراص النوافذ المستطيلة التى تؤطر زوايا شتى لحظات التطلع منها، ولابد أن بعض من أجهل رآنى أثناء سعيى إلى هذا الموعد.

نواص مؤدية، لافتات معلقة، معرض للزهور، ياقوتى المدخل، مداخل منطوية على أسرار شتى، أفاريز خشبية، زهور من حديد، سقف قائم، بوابة فسيحة، فناء مبلط بالحجر القديم، تطل عليه ثلاثة مبان، قديمة، تمت إلى القرن التاسع عشر، وربما الثامن عشر، فالعناية مبذولة متصلة حتى لتبدو بعض البيوت المشيدة منذ ثلاثة قرون كأنها قامت منذ خمسين سنة أو أقل.

سلالم خشبية، حلزونية التكوين.

كم طابقا ارتقيت؟

لا أدرى.

كم درجة صعدت؟

لايمكن التحديد.

ما أعيه أن مسكن صاحبى فى النهاية، متصل بالسطح، توقفت مرتين خلال طلوعى، الغرفة فسيحة، غالب عليها الظل، حشايا موزعة بدلا من المقاعد.

كم عدد الأصدقاء الذين كانوا فى انتظارى؟

لا أعرف.

حتى ملامح صاحبى تضطرب، تختلط ، متوسط القامة، ربعة، جاد دائما، عرفته خريجا للأزهر، مشغولا بأمور البلاغة، جاء إلى تلك الديار فى بعثة لعدة سنوات، يرجع بعدها إلى بلده. معروف بتعصبه للماركسية، واستشهاده المستمر بنصوص من مصادرها، وقت تدوينى هذا لا أعرف مستقره، أين هو؟، منذ سنوات نمى إلى أنه يعمل بالتدريس، وأنه فصل من الحزب الذى انتمى إليه، بعد خلافات عقائدية دبت، يكتب مقالا هنا أو هناك، لم تدم صلتى به، إذ يطيح بى الحنين أستدعيه ليمثل أمامى، فى أفق وعيى، ألم يكن السبب المؤدى إليها، لو أنه لم يدعنى لما لقيتها، لو أننى تخلفت لسبب ما.. لما عرفتها، لظل وجودها مجهولا عندى، وذلك عين الجهل بذاتى، لأن جوانب شتى عندى لم أقف عليها إلا من خلال تطلعها إلى، وإصغائها إلى كلمى، وحنوها على، وسعيها مخلصة إلى الاتحاد بى.

أحيانا.. رغم انقضاء المدة وتمام الأمر، أخشى تخلفى عن الموعد الذى تم وانقضى منذ سنوات عشر، يخفق قلبى

اضطرابا كأن الخشية من المستقبل الاتى، وليست على الماضى الآفل، إنما تفصيل ذلك يطول، فلأقصر حتى لا أحيد عن القصد.

انتظرنى صاحبى فى مكان لا أعيه الآن. رصيف المحطة؟ ناصية؟ أمام مقهى صغير كان مقصدا لعدد من المشاهير. لست متيقنا، اختلطت على الموجودات مع أنها مؤدية إليها. ظهورها بدد ماعداه، بزوغها الهادئ، المفاجئ فى فراغ الغرفة الفسيح، لا أظن طرقا تردد، أو جرسا نبه، إنما حطت بغتة. لاحت، شع حضورها الألق، العنبرى النسيم فلم يصلنى إلا أطيافها. ابتسامتهاالهادئة، الحاضة على الود، جبينها الأزهر، توقفها عند حافة البساط البربرى الزخرفى، المتسوج فى ريف الغرب ليوضع هنا وتطؤه يوما. انحناؤها قليلا حتى تخلع حذاءها، ظهور مقدمة جوربها الأبيض مؤطرا ومحددا أصابع قدميها، تلك التى لثمتها تباعا فيما بعد ومرغت عندهما هامتى إذ أوشك على بلوغ ذروتى، ويتضور أجيجى.

تبدل المكان بظهورها فولج أفقى. استندت بمقدمة ذقنها إلى ركبتها، بينما ثنت الأخرى كأنها اتخذت مرقبا خفيا تتطلع إلينا منه، قميصها من صوف ناعم، درجة من اللون ياقوتية، لا أتردد فى قبولها، والاستكانة إليها، سروالها من قطيفة سوداء، أنثوية القوام، مابين امتلاء ونحافة، استقامة أنف. وثراء شفتين مع انبساطهما ورقتهما وحيويتهما إن فى تضامهما، أو

انفراجهما الآسر عند الإصغاء، وجهها المستدير، شبه المستطيل. عيناها السوداوان، استدارتهما الهندية، وانحرافهما الصينى، أما العلاقات الخفية بين ملامحها فتسفر عن جمال خفى يستمر متجها إلى كمال مرتقب مع مضى الوقت، لا أحيد عنها بعينى إلا وأرى تبدلا طرأ.

أعرف أن الأمور تتحدد عند البدايات. لهذا قوى يقينى بسعيى إليها، ومجيئها صوبى، فى فراغ هذا المكان العلوى الذى لا أعرف من يشغله الآن، تماست نظراتنا لثوان. لمديدة قصيرة يستعصى رصدها بقياس الميقات المعروف. مع اتصال الحوار بين الجمع، تكررت مرات التلاقى بين نظراتنا. بين قسماتنا، بين تراثينا، بين رحلتى التى انتهت عندها، وظهورها المكتمل. حتى إذا تبادلنا الاستفسار والجواب ونحن فى إطار هذا الجمع أيقنت تحقق الخصوصية.

فى هذه الغرفة أشار صاحبى إليها بعد أن قدمنى ناطقا اسمها..

ـ سندس..

لحظة نطقه لاح تطابقه مع حضورها، فلم يكن ممكنا أن تسمى بغيره. فى تلك الغرفة طقت الشرارة. وأز أوارى. أما ما يستعصى على الرصد فأشمل وأعم وأبقى من كل مدرك بالحواس..

.. درجة عتيقة من سلم حجرى مؤد إلى النهر، عند الطرف الشمالى للجزيرة التى تتوسطه، تتجاور المبانى القديمة التى حوفظ على عتاقتها، هنا يقيم أثرى الأغنياء، ومشاهير الكتاب والرسامين وعازفى الموسيقى، عكس الأمر فى مدينتى، حيث هجر ميسورو الأحوال دروب القاهرة القديمة، ونأوا عنها!

هنا الطرقات ضيقة، والنواصى تؤدى إلى أزمنة متجاورة بقدر ماتوصل إلى موضع، شارع كان أو ساحة. أبواب من خشب غامق. صلد، بدون اغلاق، فى اللون والتركيب جهامة. لا تفتح إلا لمن يعرف الرموز والأرقام، أما النوافذ فمغلقة، ستائر رهيفة تحجب الأكدار والأفراح والظل والضجر والتوق.

مطاعم صغيرة فى الأزقة الضيقة، خافتة الإضاءة، أنيقة، معروف أنها أغلى مطاعم المدينة، لا يطرقها إلا العارفون، الذواقة، ليست مقصدا للسياح الأجانب، خاصة أثرياء النفط الذين أعدوا لهم شارعا عريضا، فسيحا فى وسط المدينة، فيه متاجر كبيرة، واجهاتها ملونة، وبضائعها غالية. وأماكن أخرى فيها مباذل كثيرة..

هذا ما أفضت به إلى فيما بعد، وهى تنهى مغاليق المدينة وترشدنى إلى مواطن جمالها، وتقودنى إلى نفائس كنوزها،

الكامن منها والمستتر الذى يصعب الوصول إليه أو معرفته خلال فترات زياراتى القصيرة.

أزقة الجزيرة. شوارعها الضيقة، نواصيها. انحناءات شوارعها، تلاقى مبانيها، فراغات مابين الجدران، حوارات الواجهات الصامتة، لون الضوء من خلالها، الأيام الرمادية، والنهارات الساطعة. النهايات المفاجئة غير المتوقعة للطرق الموصلة كلها إلى النهر من مختلف الجهات، الجزيرة صغيرة، مساحتها ضيقة لذلك تتلاصق البيوت، إنه الجزء الأثير. المفضل عندها فى المدينة. تقصدها إذا ألم بها ضيق. إذا رغبت فى الانفراد، إذا هامت فرحا، تجلس بالمقاهى الصغيرة. لكنها فى معظم الأحيان تمضى منفردة إلى ضفة النهر. خاصة عند تفكيرها أو انشغالها بأمر صعب. أو..

ـ اذا أردت مقابلة عزيز على..

هكذا صرحت بصوت خافت، متأمل، كأنها تخاطب شخصا لا يرى، ولم يكن سواى ماثلا أمامها، هنا.. طق سرورى، وزج بى انفعالى!

هذا السلم الحجرى المؤدى إلى النهر مباشرة يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر، هذان العمودان المرمريان كانا قائمين فى قصر قديم تهدم فى السنوات التالية على الثورة العظمى التى اجتاحت البلاد منذ قرنين، أحد رؤساء البلدية نقلهما إلى مدخل الدرج فى نهاية القرن التاسع عشر.

السلم لم يجدد، لم يرمم، تآكلت حوافه، يقولون فى المدينة إنه مشهور بالتنهدات، ومن فقد عزيزا عليه أن يجيء إلى هنا. يذكره ويتنهد، عندئذ لابد أن يراه فى المنام.

ـ هذا مكتوب فى الدليل السياحى الصادر بعدة لغات..

ـ ومع ذلك لم أر أى إنسان عدانا..

قالت إن بعض السكان القدامى أخبروها أنه منذ انتهاء ثورة الشباب نهاية الستينات كف القوم عن التردد.

ـ إلاى..

ـ لابد أن من ترغبين رؤيتهم فى المنام كثيرون..

مدت بصرها إلى بعيد، توشحت بغمام رهيف أومأت..

ـ نعم..

إذ تمتد جلستنا ويطول صمتها، تصبح مدججة بالعزلة. تتطلع إلى مياه النهر الهادئ، المروض. أتابع همس المويجات الهادئ لعلى ألمح ماتقرأه. صار الموضع مفضلا بعد اتصال أسبابنا، إذ تطوف هنا وهناك ننتهىَ إليه أو نبدأ منه، أول انفرادنا كان هناك.

عصر..

وهن النهار وبدأ خفوت الضوء، التقينا عند بداية القنطرة الحجرية، لم يكن وصولى إلى المكان الذى اختارته صعبا على، المتحف الشهير على مقربة.

بكرت. خوفا وتوقا، الخوف فمن احتمال فقدان الطريق، أما التوق فإليها، هذا الخفق الذى يسبق الخطا، وذلك الهروع الداخلى إليها، لكم أسرعت، وغالبت الشوق، وكابدت الوقت، كان ذلك قبل دبيب التثاقل، وتقاعس الهمة.

رحت وجئت فوق الجسر، انحنيت متأملا مياه النهر، الطحالب الخضراء الزلقة الملتصقة بالقوائم، حاولت تخيل اللحظات الأولى، استعدت صوتها عبر الهاتف، لم تبد أعذارا، لم تتردد، حددت الموعد، وبدأت تشرح لى كيفية وصولى إلى المحطة المؤدية، لم تنس أننى غريب، جاهل بلغة أهل البلاد.

لم أكن أدر الجهة التى ستجىء منها، لكننى خمنت أنها ستصل بالقطار، تطلعت إلى الطريق، إلى الإفريز، إلى الرصيف، إلى واجهات المبانى، إلى اللحظات التى أمضيناها عند صاحبى، ثم خروجنا معا والليل غميق، وإبدائى خشية ابتسمت لها، إذ اعتادت العودة متأخرة، إلى المتاجر العتيقة المتراصة، المتجاورة على الجانب الآخر. لكن.. صوتها جاءنى مباغتا من الناحية الأخرى، كانت فى الجزيرة، لماذا؟ كيف؟

فى البداية كنت أسأل حذرا، راغبا فى الإحاطة بكل ما يمت إليها بصلة، ولم أدر اننى أجد أقوى جسورى صوبها.

حتى بدء تلاقى مسارى بمسارها، خبرت وعرفت لحظات لقاء أولى شتى، أذكر من اللواتى أضأن حقبا من عمرى هلاتهن، يرتبط الظهور بالحضور والتكوين وقوة الرغبة

والسعى، هذا يطول شرحه، لكننى أقول موجزا إننى عرفت ظهورا كالانبثاق، كسطوع نجم جبار فى المجرة، ظهور يعشى فيجب ماعداه، ربما لا يتبقى من علاقة إلا تلك اللحيظات، جرى ذلك عندى، إذ غلبت هلات محبوبة لى ماعداها. وألحت على فأقدمت على تدوينها.

عرفت ظهورا كميلاد قطرات الندى، ترى بعد اكتمالها، صعب رصدها أثناء التكوين، وربما توحى قطيرة واحدة، وحيدة، بكون أتم، ثمة آخر يبدأ هادئا ثم يتعالى صخبه، يتدفق، يغمر، إلى هذا ينتمى طلعها ويتشج، بل يستمر بعد انصرافها، فكأن حضورها دائم مستمر حتى بعد انقضائه، بعد انقطاعها تضوى وتتجسد أناتها فى ذروة إحساسى بابتعادها.

هكذا.. تعتقت فى دمى مع مضى السنوات، ومكث منها عندى مالم أعاينه لحظات احتوائها لى واحتوائى لها، تمشى مثل الأخريات، تسعى خافتة فى الأسواق. لا تستوقف نظرا، ولا تلفت راصدا. لكن.. بعد وصولها، رسوها، يبدأ وفودها الخفى على مهل، شيئا فشيئا، يتم بزوغها، أما تورد وجنتيها فيتفتح على مهل، ولا حد للاكتمال، لم أكتشف حماس خطوها عندما تقدمتنى عبر الشوارع الضيقة إلا عندما استعدت اللحظات الفانية. كانت أسرع مما اعتدته منها فيما بعد، تقابل الأرض بكعبى حذائها فيطلق الصوت المنتظم.

تجاوزت الرصيف المبلط بالحجارة إلى بداية الدرج، أوراق شجر متساقطة، أغصان رفيعة، ذرات غامضة مجهولة المصدر، عندما استقرت جالسة لم تنفض موضعها، إنما مالت قليلا إلى الأمام، بدا صمتها عميقا، مستمرا إلى هذا الوضع ينتمي حنيني، أما العناصر كلها فإليها تنتسب، انحناءة النهر، مويجاته، الضفة الأخرى القريبة، الجزيرة التي أدرنا ظهرينا لبيوتها، لنوافذها، لمداخلها المثقلة بالأسرار، الطوابق العلوية، ملامحها تتوزع هنا وهناك، تتعشق بالنواصي، بهبات النسائم عند المفارق، أسترجعها رغم انقضاء المدة فيهن فؤادي. ويشف وجودي، أصير أدق من طيف عابر، تنفر دقات قلبي فأهلع، إذ أصغي إلى نغمة تلمس مني دفائني، تفد على اللحظة بقوة، حتى لأتوهم استعادتها، لكنها تفلت، تذوي، لا أقدر على تأملها حتى، لكن مع مروقها الشهابي تخلف زلزلة عندي وصلصلة!

في ذلك الفراغ، الحين، عند نقطة منه تماست يدانا، تكوكبت أصابعنا، حتى لم أعد قادرا على تحريك أحدها لو أردت، لتمازجها. أين سبابتي من بنصرها، وأين إبهامها من أوسطي؟ تغامست نظراتنا، وعندما ملت إليها لاقتني ولم تنفر، هل يصد الكوكب جرما أو نيزكا؟ تائها، ضالا، شاردا في الفراغات العلى، انجذب اليه. ليحترق قبل ارتطامه به؟

عند نقطة أخرى من الفراغ تلاقت شفاهنا، عندما تسارعت أنفاسنا، ونأى الوقت عنا، وكدت أمعن، تراجعت، بدت

متوهجة، متقدة، أعدت الكرة لكنها صدتني بلطف حازم. نطقت:

ـ من أنت؟

ثم تساءلت:

ـ لماذا تسعى إلى؟

ثم رددت:

ـ ولماذا أسعى اليك؟؟

ثم أتبعت قولها بهزة من رأسها:

ـ لماذا؟ مع انى لا أعرفك..

مضيت ببصرى إلى مياه النهر، إلى الضوء الهادئ الساجى، أطرقت موغلا البصر فى الدرج الحجرى الذى تمنيت الإيواء إليه مرارا فيما تلى ذلك عندما جئت إلى المدينة، لكننى لم أجرؤ على الخطو إليه أو فوقه منفردا، نعم.. أستعيده مرارا، أستكين لهبوبه على فى أقاص شتى، ولكن إذ يتحقق قربى منه أنأى، فلا أقدر على مواجهة ما انقضى وكان لأنه حى، صاحب عندى وليس فى المتناول.

رفعت بصرى، واجهتها، تطلعت إليها متفرسا، محدقا، مجتهدا، قالت حائرة:

ـ ماذا؟

حاولت الإلمام بها، بملامحها، بمصادر سناها وألقها، بمنابع حنانها البادي، وهشاشتها، وهمس حضورها.

- ماذا؟

عندئذ أشرعت أصبعي. صوبته تجاهها في تحديد وتعيين لا لبس فيه، هنا تبددت حيرتها، ولاح مزيج من دهشة وتساؤل، سمعت رنة صوتها الخاصة المقترنة بلهجة موطنها الشامي:

- أنا؟

الطريق المؤدي..

.. كنت مقيما في الجانب الشرقي من المدينة، وهي في الغربي، بعد منتصف الليل، وعبر أسلاك ودوائر معدنية وأجهزة لا قبل لي بفك طلاسمها أصغيت إلى صوتها يصف الطريق. كتبت اسم المحطة بحروف عربية، استعدتها مرارا لجزالة نطقها وفرادته، وبعد تدويني كافة العلامات، بعد إصغائي إلى جملتها:

- أنا في انتظارك..

أقلعت مرتين، الأولى من مكاني، والثانية من وقتي، مستوثقا أن لحيظات تأهبي وتوجهي ستضفي على مسيرة عمري أمرا لا عهد لي به، وهكذا صارت تلك الليلة من ملاجئي الخفية،

أقصدها إذ تفيض بى الكدورات، واستبطئ استعادتها عندما تتكاثر الهواجم فيهدأ قلبى، ويخف همى.

تطلعى إلى القضبان الممتدة تحت الأرض، الألوان المختلفة، الدوائر الصغيرة المرسومة فوق اللوحة الإرشادية، هذه الخريطة عرفتها بأحجام شتى، منها الكبير المتصل بمفاتيح ملونة عند مداخل المحطات، تضغط اسم المحطة فيضئ الدّرب المؤدى، ومنها المستطيل الملصق إلى الجدران الداخلية للعربات، ومنها الصغير كصفحة كتاب، يوضع فى الحافظة، ومن هذا احتفظت بواحدة. لكم تطلعت إليها فى لحظات شتى، أنظر خط المترو الذى كان يصلنى بها، لونه على الورق بنى غامق، أمرق بالبداية، مستعيدا المدخل القديم، السلم الذى يرجع إلى بداية القرن، الأشجار المطلة على المدخل والتى تغيب شيئا فشيئا.

ثم أنتقل ببصرى على الورق، من محطة إلى أخرى، ناطقا اسم كل منها على مهل، متمنيا أن أقطع وقتا مماثلا لما كنت أستغرقه فى الواقع، حتى أنتهى إلى الموضع الذى حددته لى أول ليلة، ثم صار مقصدى فى المرات التالية، عرفته حتى أننى اعتدت ركوب آخر عربات القطار لمواجهتها المخرج مما يوفر على قطع بضعة أمتار مشيا، أنحنى متفرسا، مدققا، مستبصرا الخريطة، متخيلا الداخل والخارج، المراحل التى يخرج فيها القطار من النفق، عبوره الجسم المعلق فوق النهر،

المعالم الشهيرة، البرج، الضريح، المتحف. المقاهى القديمة، عازفى الآلات الموسيقية، باعة الزهور، تطالعنى منبثة فى كل صوب فكأن هذا لم يوجد إلا للتمهيد إليها. والسعى باتجاهها، فلا يمكن بلوغها بغتة أو مصادفة، لابد من قطع مسافة وارتحال، وقد طال سفرى إليها، سنوات عمرى لم تكن إلا مراحل نحوها، شتى أسفارى، قطعى المسافات القصية، بلوغى المراسى، إقلاعى من الموانئ، ركوبى طائرات تجتاز الفراغات العلا، سفن صيد تخرج إلى غيبة تطول أمدا غير قصير، فى غرف مغلقة، فى زوايا، فى تكايا هجرها الدراويش منذ زمن، أضرحة، مزارات، أقطار أجهل لغات سكانها، كان سعيى اليها شاقا عسرا لكنها.. اليسر كله!

نزلت فوق الرصيف طاويا قصدى، متكتما أمرى، الجدران شبه مقوسة، النصف الأسفل مغطى ببلاطات خزفية زرقاء، العلوى مكسو ببلاطات بيضاء، خريطة توضح المنطقة المحيطة التى سأخرج إليها، لم أتوقف أمامها، لم أستعن بها، إنما كنت أتبع صوتها، دونت ما أملته على، صعدت الدرج القصير، خرجت إلى الفراغ الليلى. المبنى المواجه من طابقين، تحته مخبز، يليه مقهى أغلق أبوابه، متجر لملابس الأطفال، مكتبة قديمة متخصصة فى الأديان المختلفة، يقصدها باحثون من شتى أنحاء العالم، المقهى المطل على ناصية الشارع المخصص للمشاة فقط، الميدان الصغير تتوسطه ساعة ذات أربع واجهات مستديرة، إلى يمين القادم من المحطة يبدأ الطريق، ما من

ملامح محددة، منازل متجاورة، سور مرتفع فى الجانب الآخر، رقم تسعة، تسعة، التاسع مكرر، مدخل أول يؤدى إلى فناء صغير، يتوسطه حوض دائرى من رخام يضم زهورا، فى المواجهة باب خشبى ذو مصراعين، مصمت، قرب منتصف الجدار لوحة مضيئة، مفاتيح مستديرة، بحذر أضغط الأرقام والحروف، أقرأها من الورقة، أسرع بعد سماع الأزيز الخافت إلى دفع الباب، أجتاز العتبة، رائحة الأماكن الظليلة، مصعد لا يتسع إلا لشخصين، أضغط الزر الثالث، إلى اليمين، بابها، آخر مدخل أجتازه صوبها، رنة الجرس يمكننى سماعها، وكأنها تنتظر، قبل أن أمد يدى مرة ثانية انشق مصرعا الباب، كانت تقف خلفه، وجهها يتطلع إلى مرحبا، هادئا مبتسما..

المأوى..

.. البدايات لا تنسى. كذا النهايات، الحقائق لاتتبدل إلا عند استعادتها، أكابد تجسيد اللحظة بالمخيلة، أحدق فيما لا يمكن لمسه، أدقق فيما يستعصى على غيرى رؤيته، أرى التكوين أحيانا فى مجمله، ومرات أخرى فى تفصيله. وقد أطلع على مالم ألحظه فى آنيته، وربما يغيب عنى ماظننت أنه لن يبيد أبدا.

هذا الحيز ضمنا، بمجرد إغلاق المزلاج صرنا بمفردنا، بمنأى عن كل بصر، وبعيدا عن كل سعى، عدنا بالخليقة إلى بدايتها.

الموجودات كافة فى ضمير الغيب، المؤكد، الأمر الوحيد اليقينى.. تدانينا، تأهبنا، تماهينا، حركتنا فى هذا الحيز.

مدخل مفض إلى صالة صغيرة، ثم غرفة داخلية، يليها

حمام مستطيل، أتمهل، لا.. بل أعود إلى انتظارى القصير فى الخارج، عندما سمعت تكة القفل، ومفارقة السلسلة المعدنية لمربطها، وتقلب مفتاح ثالث، أدركت إلى أى حد تحتاط، تجسدت عندى وحدتها، قاسية، وعرة، عندما فتحت الشطر المتحرك من الباب كان جسدها يختفى خلفه، بينما أطلت برأسها، كان حضورها متضمنا الترحيب والتدثر والحذر والتواطؤ والتفاهم، وتوق إلى ماسيكون! عندما عبرت العتبة الفاصلة هب على حضور خاص، مازلت أعيه لكننى لا أقدر على تحديده أو تعيينه أو نسبته إلى أى من الممكنات، ثمة مايستعصى على الذاكرة الاحتفاظ به، مثل الأصوات، الروائح، تلون اللحيظات العابرة بالأحوال، وبرغم صعوبة استدعائها أو تمثلها فإن قبسا منها إذ يهفو فى أويقات لا أتأهب خلالها للتلقى أو هبوب الحنين، عندئذ ينبعث المكان والزمان، ولكنه سرعان مايفنى.

يشق على استعادة خصوصية المسكن، أعى منه وطأة الظلال، ومثول الانفراد، الوحدة، هذا ما انطبع عندى فى اللحيظات الأولى. وهذا ما ظل مرجعا لى أستند اليه وأتكئ عندما أستعيد الوقت.

جلستها عند حافة الفراش، تسند ذقنها إلى راحتى يديها، تميل إلى أمام، نظرها مسدد فى اتجاه خفى لايبين، تطلعها عبر النافذة المستطيلة، تصل مابين السقف والأرض، يحد

انفتاحها على الفراغ سور من حديد مفرغ، قصير، ستارة خفيفة لكنها تحجب، مع أنها أكدت لى، هنا لا يتلصص إنسان بالنظر على آخر، تلك اللحظات الأولى. استقرارى فوق الحشية الوثيرة التى فرشت فوق الأرض مباشرة، هكذا اتجهت صوبها، لم أقعد فوق الأريكة الصغيرة، أنثوية المظهر.

مذياع بنى اللون، قديم الطراز فوق منضدة مستديرة، يذكرنى بالحرب العالمية الأولى، أو الثانية، حرب فيها ألمان وإنجليز وهنود واستراليون، لم أعشها لم تكن وفادتى إلى العالم قد تمت ربما الآن، طرازه يمت إلى حقبة مابين الحربين، ربما لأنه يشبه مذياعا امتلكه سكان الطابق الأرضى، كنا ننزل عندهم لنختمى من الغارات الجوية، من الشظايا الحائمة، الشاردة، كنا نلتف حوله، الضوء الواهن المنبعث من لوحة الموجات والمفاتيح يضئ الملامح المترقبة، المتحفزة لسماع مايجرى فى فلسطين، مذياع خشبى الصندوق، بنى اللون، مستطيل القاعدة، محدب أعلاه، أسماء المحطات وأرقام الموجات مكتوبة بالانجليزية والعربية، قالت إنها صحبته معها من الشام، خص والدها زمنا، وإنها لتراه جالسا إلى جواره مصغيا إلى الأخبار أو موسيقى منبعثة من مكان ما، قالت إنه عزيز عليها جدا، فى الركن منضدة، لوح عريض من الخشب بلونه الطبيعى، يستند إلى أربع ركائز، بدون أدراج، فوقه كتب، وعلب داخلها بطاقات، كوب خزفى تبرز منه أقلام عديدة، مختلف ألوانها، وأوراق شتى وحامل خطابات قرب الحافة.

كنت متأثرا بدرجة ما، أخشى أن أبدو مبتذلا، أن يسفر مني مايعني سوء الأدب، وهذا من قبيح الفعال في مواجهة المحبوب. لذا كان بصري موزعا مابين الرغبة في النظر إليها، والإغضاء خجلا منها، أما اتقادي وتأججي عند النهر فلا أثر له هنا، بل صوت هادئ، ألست على مقربة، ألم أدن؟ أليست القطوف قريبة.. فلم العجلة التي ربما أدت إلى الخطأ؟

غلب علي حنين ما ربما أثاره دفء المكان، وما يعنيه اجتماعنا على انفراد، وانشغالي بكيفية استعادتي للحظات عندما تفوتني وتصبح مستحيلة التناول، عندي أيضا تهيب ما، يلازمني إذ أدنو من مشارف امرأة سيتوحد عالمها بعالمي، ماذا يجب أن أقوم به؟ كيف أجتاز المسافة الفاصلة؟ رغم قصرها لكنها أصعب المراحل.

سألت عن موقع المنطقة من المدينة؟ عن المدة المنقضية على سكنها هنا؟ عن المسافة التي تقطعها يوميا إلى الجامعة، إلى عملها بعد الظهيرة. عن إيجار الشقة. نسبته إلى دخلها. أين تنام؟، بأي غطاء تتدثر؟ متى تفطر؟ على أي ضوء تقرأ؟ متى تعمل في أطروحتها، كيف توزع الوقت بين تصحيح كراسات التلاميذ ومذاكرتها؟ كم ساعة تنام إذن؟

أجابتني بدقة، بسرور بين، فيما بعد قالت إنها تأثرت جدا لاهتمامي بها، منذ سنوات طوال، منذ مجيئها إلى هذه الغربة لم يستفسر آخر عن شئونها، ولم يبد مخلوق اهتماما كما

فعلت. عندما قامت شاهرة قامتها المتوسطية، ومشت مسفرة عن خطوط جسدها التى لاتبرز عبر قميصها وبنطلونها، تساءلت خفية عما إذا سبقنى شخص آخر إلى هنا؟ أحقا لم يهتم بها أحد؟ وهل أمضت المدة السابقة وحيدة؟

مرة أخرى بدت خارجة من الغرفة الداخلية، رواؤها المنزلى مضموم إلى جسدها بحزام عليه نقوش صينية، فيما بعد قالت بدون أن أسألها إنها لو لم تصدق إحساسها، لو لم تصغ إلى بعض من سيرتى - أفضى بها صاحبى - لما أقدمت ودعتنى.

عرفت من قبلى آخرين؟، نعم.. لكنهم لم يدخلوا هذا المكان. قعدت متخذة وضعها الذى صار علامة عندى، ودلالة على وقت، وإشارة إلى نعيم!

إحاطتها ركبتيها بيديها. ميلها قليلا، بروز استدارتها، خصرها الهامس، ردفاها الثريان، المحكمان، لاتدركهما زيادة ولا ينالهما فتور، نهداها المتطلعان، ثمارها لم يتطرق إليها شك مع أنها تدنو من الأربعين، تماثلنى، ولدنا العام نفسه، تسبقنى بشهر، جاءت فى أبريل وتبعتها فى مايو.

نزل على صمت عندما واجهت كينونتها المترقبة، بدء سفور جمالها بلا حد، تتألق عيناها، تدفق منهما حيوية، نظرت دهشا، راغبا، ساعيا. متعجبا..

ـ ماذا؟

لكم أستعيد تلك اللحيظات التى تجتاز فيها الصلات فواصل حاسمة، فيتقرر مصير أو تبدأ رحلة، تقدمت صوبها، كان كل مايمت إلى مؤديا إليها، وكل ماينبعث منها وافدا إلى..

المقهى..

بالتحديد..

هذا المقهى وليس غيره، طلاء المدخل الياقوتى، والنقوش الفضية على زجاج الأبواب، ومقاعده البسيطة ذات الحضور الذى يوحى بالإنسان إلى درجة ما!

جئته معها والصباح باكر، كنت مجهدا إثر ليلة لم أنم خلالها، كل ماعرفته جديد على، صعب هجوعى فى مكان لم آلفه، وإن تأثرت باستكانتها بين ذراعى، حتى أننى أحطتها متنسما مشارفها، مع أننى أسعى إلى الوحدة عند المضى إلى الوسن.

تآوينا كل فى الآخر، رغم تعبى كنت مقبلا على النهار الجديد، مستبشرا، متأهبا للصفح الجميل، واثقا أننى لفترة طويلة سوف أسترجع واجهات البيوت المطلة، وتساؤلى بدهشة، كيف يبدو الميدان أفسح مما رأيته عند عبورى ليلا؟، كيف لم أنتبه إلى هذا المقهى عند مرورى به؟ كيف لم يخطر ببالى أنه سوف يستمر معى كعلامة، كإشارة، كباعث ذكرى وحاض

على دفق الدم أسرع، ولهاث النبض بمجرد استعادته، بالتحديد فى تلك اللحظات النهارية الأولى.

يقع على ناصية، الجانب الذى اعتدنا الجلوس فيه مطل على شارع جانبى عتيق، غير مسموح للعربات المرور فيه، يتوسط بدايته عمود حجرى قديم، على جانبيه تطل مطاعم مغربية، وصينية، وأرمنية، وأذربيجانية، وشامية، وإيرانية، وأفغانية مفروشة بالبسط، وبقالات تبيع الفلفل والبهارات واللبان الجاوى والجبن الأبيض الإستامبولى، والزيتون والليمون والفلفل المعتق، مكتبات صغيرة متخصصة، واحدة لاتعرض إلا كتبا فى النخيل، وأخرى لا تبيع إلا مؤلفات عن الإبل، وثالثة يمكن العثور فيها على أى كتاب حول الديانات القديمة، ومكتبة يسعى إليها كل من يدرس الأحلام وتفسيراتها وتأويلاتها.

قالت إن هذه المكتبات بدأت مع الجامعة، القرن السادس عشر، كان الحى كله لإقامة الطلبة لكن ثمة تغيرات طرأت.

اجتزنا المدخل وكأننا اعتدنا المجىء معا منذ سنوات طويلة، كانت هادئة جدا، وثيرة الملامح، ناعمة، وعندما دنت منا سيدة المقهى ابتسمنا، حسناء راسخة، عبرت أربعين على الأقل، ابتسامتها دائمة حتى مع تماس شفتيها، بينهما مودة، حوارهما يتخلله إغماض عينين أسفا، وزم شفتين، وأداء حسرة أو تأس.

تشير إلى، تنطق اسمى مجردا، تمد السيدة يدها مرة أخرى، تقول بعد انصرافها إنها تعرفها منذ سبع سنوات، منذ مجيئها إلى هنا، قالت إنه ركنها الأثير. من هنا يمكنها تأمل الساعين على أقدامهم، والميدان، تجيء مبكرة، تشرب قهوتها، تأكل شطيرة أو كعكة، لا يعقبها زاد آخر إلا قرب الغروب فى البيت، مابين المدرسة والبيت حوالى ساعة، عملها على فترتين، أما الجامعة فلا تذهب إليها بانتظام، إنما لمقابلة الأستاذ المشرف على الرسالة، يتناقشان بعض الوقت، لايحدث هذا إلا مرتان أو ثلاث كل شهر.

قالت إنها استغرقت وقتا أطول من المقرر لإعداد الرسالة، كان ممكنا أن تنتهى منها خلال العامين الماضيين، لكن هذا يعنى إلغاء مبرر وجودها، إقامتها هنا، إنها تحصل على التصريح كل سنة لأنها تدرس، لكن بعد الدكتوراة عليها أن ترحل، لا ترغب فى العودة لأن هذا يعنى المخاطرة..

قالت إن شقيقها فى المعتقل منذ ثمان سنوات، إنه مازال حيا لكن لا تدرى ماذا سيصير إليه الوضع، مايمكن أن يحدث لها فظيع.. فظيع، إنها تشارك فى نشاطات المعارضة هنا، نعم.. فى عودتها مخاطرة.

قالت إنها تخطط للاستقرار هنا.

لم تفسر. لم أشأ السؤال عن كل شىء مرة واحدة..

قالت إن أمتع لحظاتها هنا عند سقوط المطر أو الثلج، ورؤيتها له من وراء الزجاج.

قالت إنها لاتتذكر القائل: إن العاصفة تكون جميلة إذا كان البيت قويا..أدارت فنجان القهوة بين أصابعها، صامتة، لكن وجهها ضاج بالحيوية، هيئة لم أرها إلا فى ذلك المقهى، لكم اجتهدت محاولا استعادتها حتى أدركنى الكلل، أحيانا تمرق أمامى بدون توقع أو تهيؤ، الصباح الأول، لكم جئنا إلى الموضع ذاته، عصرا، ظهرا، ليلا، فى أيام الأحد حيث تقفر الشوارع والميادين، لا أستعيد المقهى إلا عبر هذا الصباح حتى وان تذكرت حوارا جرى فيه ليلا، فى أقصى البعد أستشعر سخونة رشفة القهوة التى سرت وأنا أتطلع إليها.

نزلت المدينة فيما بعد سبع مرات مابين زيارة دامت شهرا، وأخرى لم تتعد ثلاثة أيام، دائما أسعى إليه، مزارى الخاص، آمل رؤيتها صدفة، غير أن ذلك لم يحدث قط، مع أننى رأيتها بدون ترتيب فى أوجنا، بل فى أيامنا الأولى.. بالضبط، فى مواجهة هذا المقهى.

ذلك أن صاحبا لى أظهر ودا، عناية، صحبنى إلى ما أجهله من شوارع الحى القديم، دلنى على واجهات جميلة تنتمى إلى القرن الثامن عشر، ومداخل بيوت منمنمة، دعانى إلى غداء بمطعم تونسى عليه إقبال، نويت دعوتها إلى المكان عينه، حتى أستعيده مقترنا بها، رغم طول تجوالى فى المدينة فلم يعلق

عندى إلا ما ارتبط بها. أينما وليت وجهى فى أنحائها يحوم فكرى حولها، فإما أستعيد لحظات أمضيناها. أو حوارا جرى، أو أتخيلها فى الأماكن التى لم أصحبها إليها، مثل مدرستها، أو جامعتها، أو متعجلا لحظات ستجمعنا، أو متخيلا العبارات التى سنتبادلها عند اللقاء، أينعت علاقتنابسرعة ونما اتصالنا، كأن وجودى المؤقت يخلق قوانينه الخاصة، فاليوم من مدتى يوازى شهرا إذا قيس بالحالة الطبيعية، كنا نتعرف معا إلى الموجودات من جديد، وكأننا ندركها لأول مرة، كنا نعتاد الضوء معا، جسد كل منا يألف الآخر بسرعة، حتى أن حوارا بالصمت سرعان مايتصل بين مسامنا وأطرافناوجوهرنا حتى اذا أينعنا وتجاوزنا أول حد الذروة، لم أعد أدرى، أهذا وجودى المادى أو وجودها؟ أهذا جسدها أو جسدى؟ تتداخل حواسنا، وتتصهر ماديتنا، فينتفى التمييز والفرق وتنعدم المسافات الضئيلة الفاصلة مابين الأصل والظل، مابين الغصن والجذع، لكم استعدت فى غربتى عنها لحظة مولية تنتمى إلى ذروة الصحبة، فيدركنى ابتهاج، وأوشك أن أبادلها النظر والحوار والمودة، بل إن وهجا يسرى من روحى إلى جسدى فأشرع!

فى مشيى الوئيد، فى سعيى الحثيث، عند عبور النواصى والميادين، عند تأهبى اجتياز المداخل، عند وصولى أو إقلاعى، تصحبنى حالة تنبعث دائما فى أوج عشقى،إذ أثق من رؤية المحبوب لى أينما وليت وجها، فى شتى حالاتى، يتطلع إلى من

نقطة خفية يستعصى رصدها، علوية. سفلية، لا تستند إلى يابسة، ولا بناء، ولا نهر ولا بحر. يضفى على هذا سلوكا خاصا، وانضباطا، فكل مايصدر عنى يرقبه الحبيب.

هكذا مضيت مع صاحبى إلى الشارع القديم، قال إننا سنرى بعض المكتبات القديمة. أخفيت ابتسامة ودهشة وشوقا وحذرا. أما الابتسامة فمبعثها حس ساخر، لجهله مجيئى اليومى إلى تلك الناحية، وإقامتى فى بيت أرى فيه ذاتى لأول مرة سافرة، كما اننى توقفت مرارا أمام واجهات المكتبات. إذ أننى أجىء نهارا قبل موعدى بريع، بنصف الساعة، أرغب فى اتخاذ الحيطة وفى الوصول قبلها حتى يكون من حظى التلقى.

أما الدهشة فلصلتى بالمكان. هل كان خفق قلبى سيتردد بهذه القوة لو أنها لم تكن تقيم على مقربة؟ لو أننى لم أسع إليها هنا، لو أننا لم نتطلع عبر زجاج المقهى؟ هل كنت سأتطلع برفق وحنو إلى المقاعد والمناضد والموضع الذى اعتدناه، حتى لأتمنى تقبيل كل شبر، والانحناء أمام كل زاوية؟ هل كان خطوى سيتخذ هذا الإيقاع الذى لم أعتده منى؟

أما الشوق فإليها، والرغبة فى سلوك الطريق صوبها مباشرة، عبور المكان كله إلى موضعها، إلى أى حيز تتحرك فيه.

أما الحذر فلخشيتى أن يسفر عنى ماينم على، كنت أرغب الحديث عنها، وصفها، قص ماجرى على الناس، لكننى كتمت

لأنها لم تبد إشارة الإفضاء والجهر، وما التزامى إلامن عناصر أدبى مع المحبوب. كنت أعرف أن موعد صاحبى يقترب. وأنه سيفارقنى بعد قليل. لابد أن يصحب زوجته طبيبة التحاليل بعد انتهاء عملها فى المستشفى الدولى. بقى على لقائنا ساعة وربع. قررت أن أمضيها منفردا فى المقهى.

خطونا تجاه الساحة، توقفنا عند الرصيف، بالضبط أمام الجانب الآخر من المقهى، فجأة.. تبدل الفراغ وتغيرت الكينونة، يتخذ الطريق حضورا مغايرا فيصعب إدراك الأشياء، فى البدء لم أستوعب، لكن بعد اكتمال ورودها على بصرى فهمت.

تقف على الناحية الأخرى من الطريق تضع يديها فى جيبى سترتها، تتطلع إلى، مبتسمة، ابتسامة سوف أراها مستقلة، بمفردها، فى أوقات شتى، وبقاع قصية، لكننى لن أدركها، ولأننى رأيت سناها عرفت أنها شاهدتنى قبل أن ألمحها. لم أنتظر إضاءة اللون الأخضر. عبرت الطريق مسرعا مع خطورة ذلك، وشدة عاقبته. أبدت جزعا ولكننى لم أعبأ..

ـ لست بمفردك..

استدرت تجاه صاحبى الواقف هناك.

ـ صاحبى عبد الله.. لم أذكر لك شيئا عنه..

قالت مبتسمة:

ـ أمور كثيرة لم تفض بها إلى..

قلت:

ـ الكتاب لا يقرأ مرة واحدة..

عبر صاحبى، بدا مدركا للأمر، انحنى محييا، التفت إلى..

ـ إلى الغد..

قال مداعبا:

ـ لا تعبر واللون الأحمر مضاء مرة أخرى..

لوحت، استدرت تجاهها.

معقول هذا؟

نلتقى صدفة؟

فى هذا الموضع بالذات؟

لو أننا لم نلتق، لو أن كل منا يجهل الآخر، كيف كنت سأتطلع إليها؟ كيف كنت سأرى ملامحها؟ هل كانت ستعبر للمحة. قد تبقى ملامحها فى وعيى لحظات، تعاودنى أياما ثم تغرب، ماذا كان يمكن أن يكون لو أن ماكان لم يكن؟

حدثتنى وهى دانية منى، إذ تلامس بمؤخرتها ركبتى وتحيط عنقى بذراعيها..

ـ مدخلك.. هو صراعك مع الوقت..

فوجئت بسداد فهمها، ذلك ما استعصى على كثيرين،

كأنها تسفر عنى، قبلتها..

ـ أخشى انقضاء وقتك..

لا مست بمقدمة أصبعها صدرى..

ـ لا.. إنما تخاف لانقضاء زمنك أنت..

صحيح!

لم أجادل، عندما نطقت كان يشغلنى حقا إفلات اللحظات التى تطوينى، تلف كل شئ ، انشغالى بلحظة سأقلع فيها نائيا عنها، عندما تنتهى غربتى الموقوتة بعودتى إلى وطنى لتبدأ غربتى الدائمة.

ما ظننت قط أن المكان واحد والمصائر شتى، حتى قصدت ذلك المقهى ذات صباح، فى الموعد عينه. التوقيت الذى جئته أول مرة ولكن فى زمن مغاير بعد انفصام العرى..

سيدة المقهى بدا عليها وهن، جاءت متباطئة. أعادت ترتيب الأكواب والمفرش فوق المنضدة، لم أكف عن التطلع إليها لعلها تلمح، لعلها تعى.

لكم تبادلت معها الحوار المرح الضحك. كنت أناديها: «كونتيسة» لهيبة مظهرها. وأناقة حضورها. كنت أنطقها بلهجتى، تصحح صاحبتى، تعيد لفظها كما ينبغى، لكم سألتنى عن الأهرمات، عن الأقصر، عن بورسعيد، كان أحد

أعمامها يعمل فى شركة القناة قبل التأميم، فى كل مرة تذكر صاحبتها التى زارت مصر وأمضت شهرا. تفيض نشاطا إذ ترانا، تتدفق حيوية إذ تلمح تساررنا وتلاقينا!

فى تلك المرة تطلعت إلى منتظرة ما أرغب شربه أو أكله، أيقنت محوى عندها، كأنى غريب يطرق المقهى أول وآخر مرة، عابر ليس ضروريا الاهتمام به.

هل تعرف بانقضاء ماكان بيننا؟

لكنها تروح وتجىء محايدة تماما، بعد لحظات أسأل نفسى: لماذا جئت إلى هنا؟، ماذا أنتظر؟

تتقلقل جلستى، أبدا.. ليس هذا المقهى الذى ألفته يوما، وعرفته. ويا لأسفى.. ليس المقهى بمفرده.

ضيق الأزقة..

.. وتلك ناصية مؤدية إلى شارع ظليل اجتزناه على مهل، أوله مكتبة متخصصة فى رسائل المشاهير، تعرض صورا منها مغطاة برقائق الزجاج، ثم تتوالى الواجهات الضيقة، والأبواب الحرجة، على الأرفف مجلدات قديمة، وعلب خشبية روسية، وحلى من فضة يمنية، وخزف صينى، وتماثيل خشبية أفريقية، وأقنعة ازتكية، وجلود مغربية، وخشب مطعم من مصر، علقت أول مرة ضاحكة:

ـ انما أجيء للفرجة..

أشرت إلى علبة سوداء صغيرة، فى حجم راحة اليد، مغطاة برسوم ألوانها زاهية..

ـ أسعار مرتفعة جدا..

أومأت.

ـ وهل تجد من يشتريها؟

قالت:

ـ ولماذا عرضتا إذن.. كثير مما أراه يختفى على الفور..

هذا طريق تسلكه متمهلة، معرض حي. ترتاده عند العصارى، فى الأيام التى تخلو من المطر، وتخف أعباء عملها، أتأبط ذراعها، أو تتعلق بى، إذ تتوقف مطولا أمام واجهة تتطلع إلى. تبسط أناملها تفد إلى شعرى، تلثم وجنتى، أو تميل حتى يلامس رأسها صدرى. لخشونة أيامى لم أعتد ابداء هذه الرقة، أرتبك إزاء حنوها المغدق، قد أنطق كلمتين عبر غمغمة، أو كلمات لا رابط بينها، أو أولى النظر إلى غير جهة المحبوبة حتى لا يلوح وهنى ويفتضح أمرى.

لكم استدعيت فى زمن كربى لفتاتها نحوى. فكان مجرد حضورهابالمخيلة يهدئ أمرى وييسر حالى، فكأنى تزودت من لحظاتها لأيامى الصعاب. كأنهاحضنتنى، حوطتنى بالأسرار المانعة للأذى وقحط المخيلة، أغدقت على غيثا يروى جدبى حتى

فى غيابها، ما البال إذن لحظة صدوره؟ عند اقترابها وإقبالها. أما إحاطتها لى عند بدء هجوعى فأمر أنوى لو اتسع المدى افراد كتاب خاص أشرح فيه الحال، فلو فتحت الكلام فيه لضاقت العبارة، ولما استوعب الحيز. إنما نويت الآن ذكر كل ما ارتبط بها من أماكن مررنا فيها أو أقمنا بها معا، دافعى إلى ذلك بدء وهنى، واتساع الشقة بيننا، بعد ترددى مرارا على المواضع عينها، فكل أمرى. حتى المخيلة التى اعتصمت بها ملتمسا العون خذلتنى.

أزقة ضيقة، عتيقة، مبللة بندى خفى، مطاعم راسخة. تقدم المأكولات التقليدية، أطباق من الجنوب، أو الشمال. معظمها ينقرض الآن، تنتشر مطاعم الأكل السريع. هذه الشركات الأمريكية!

إنها تحب الطعام الجيد، الغريب، تستمتع به إذا وجد.

وإذا ضعفت الإمكانية؟

قالت:

ـ أرضى بالمتاح اليسير واستمتع!

قالت أمام واجهة تعرض السجاد التركمانى الغالب عليه لون الياقوت النارى، إنها حريصة على ألا تربط نفسها بعادة ما حتى لاتجد نفسها عاجزة إذا ماتغير الحال، تعلمت الشبع من القليل، وارتداء مالديها وليس ماتريد، أن تتمدد أحيانا فوق

الحشية التى تلامس الأرض مباشرة أو فوق السرير، فى أى ظروف يمكنها النوم، منذ مجيئها إلى هنا تقلبت فى ظروف شتى، عملت جليسة أطفال عند أسرة ألبانيه، وعاملة تليفون فى سفارة دولة عربية، لكنها هجت عندما حاول معظمهم مضاجعتها، وموزعة إعلانات، تطوف المدينة على قدميها لتضع فى صناديق البريد الإعلانات المجانية، وموظفة فى متجر يبيع الأقمشة ،وأخيرا.. مدرسة لأطفال المهاجرين، فى بلادها كان والدها ميسورا، مهيب الجانب لماضيه الوطنى، وأشعاره التى قرر بعضها على المدارس، لكن.. بعد اعتقال شقيقها اختلت أمورهم، وتفرق الإخوة فى البلاد، الصغرى فى أمريكا، متزوجة من طبيب، ولكنها ليست سعيدة، واستمرار حياة كهذه خطأ، قالت إن العلاقات تبدأ لتنتهى، وعندما تستنفد مضامينها يجب أن تتوقف، أما استمرارها بعد ذلك فأمر معذب..

قلت إننى أخشى هذه اللهجة.

ـ أليست الحياة كذلك؟

قلت إن هذا حق، وما تنطقه صدق، ولكن حبنا أبدى.

ضحكت، ابتسامتها الغامضة، المحيرة، القادمة من عمق صدرها.

ـ إذن.. أبدى أبدى..

أمام بيت نحيل الواجهة، بارز النوافذ توقفنا.

ـ تمنيت سكناه..

قلت إن عمارته، وهيئته، وخطوطه توحى بالشجن، لمست صدرى بأصبعها الذى انبعث فجأة.

ـ ولهذا السبب أحببته..

ثم قالت:

ـ عجيب.. كيف أدركت؟

أسفرت عن فرحة أولى، غضة، تلقائية لاتفاقنا فى الرؤية والاختيار بدون ترتيب، أحببت ردود فعلها فى تقلبات أحوالها المختلفة، كانت تخف وتشف فى أماكن بعينها، بيتها، الحديقة الملكية، المقهى. تسفر عن أنثويتها الضاجة إذ تتأبط ذراعى وتمشى فى هذا الطريق، عرفت منها درجة نادرة من الدلال السيال الرقراق، لم يلح إلا عند تسكعنا أمام تلك الواجهات، سرعان ما يختفى ويتبدل بجدية وشجن إذا ولجنا قاعة عرض لوحات، كانت فى الطابق الأول من بيت ذى شرفات حجرية لا مثيل لها فى بنايات المدينة، كان على الناصية المؤدية إلى تلافيف من الطرق الضيقة. فى أحدها يقع المنزل الذى يسكنه صاحبنا هذا، ولكننى مرجئ هذا إلى مابعد الحدائق، فالأماكن داخلى لها ترتيب يطابق مايمت إلى، بغض النظر عن محالها فى الواقع..

حدائق الرغبة..

مهما تبدلت المعالم، لا يمكن أن أضل طريقى إلى هذا المقعد بالذات، بالضبط.. فى مواجهة النافورة الوسطى. على هيئة زهرة لوتس، يتدفق منها الماء بقوة ناثرا رذاذه، متحولا إلى أطياف ضوئية، بعد خلو عالمى منها، جئت بمفردى، فعدت فوق مكانها المفضل، رأيت ماكانت تحدق إليه وتصغى، نصاعة الما، وألق الضوء. اصطدام القطرات المتساقطة ببعضها قبل ملامستها رخام القاعدة. أودعت فى الفراغ أثرا غير مرئى، إلى هنا جاءت لتطوى الوقت وتستدعى المراحل. أيام الأحد والعطلات، تمضى ساعة أو ساعتين، عندها يبعث تدفق النافورة راحة، لكننى لم أعرف مثلها عندما سعيت إلى الموضع ذاته فى محاولاتى العاثرة اقتفاء زمنها المندثر، وسعيى بمفردى لاسترداد أماكن جمعتنا وصاغتنا صياغة أخرى.

فوق هذا المقعد، تطلعت إلى الأمام ساهمة وتبعت نظراتها المهاجرة، ملت عليها قبلتها، تنسمت عبيرها، كانت رائحتها ذكية، خاصة، لا تشبه أى أنثى أخرى، لها مصادرها الخفية المستعصية على الرصد. قالت يوما وهى متجردة، سابحة فى جلال عريها أنها تفضل الروائح الطبيعية، ولا تضع المساحيق، تعتبرها زيفا يجب ألا تلجأ إليه، أما مايثير غثيانها وسخريتها فرجل يصبغ شعره.

هنا رحت أحدد من بعيد سعيا إلى معرفة كنه علاقاتها الماضية، والآنية، أبدأ بالسؤال عن صاحباتها فى موطنها الأصلى، صديقاتها هنا، بحذر أقترب من علاقتها بالرجال، خاصة هذا الشاب، استفسرت عن مشروعه الدراسى، عن أويقات تلاقيهما، تطلعت إلى هادئة، لم يفتها اهتمامى، ولم يغب عنها مصدره..

ـ تهتم به كثيرا..

ـ أريد أن أعرف كل شئ عنك..

ـ عنه أو عنى..

ـ عنك أنت..

تقطع الحوار آبية إلى صمتها الغامض، كنت أخفى اضطراما. ساعيا إلى سبر أغوار قد تخفى مايكرينى، ما أخشاه، راغبا فى الوقوف على معرفة حدود علاقاتها بالآخرين.

عصر أحد قمنا بتجول فى الحديقة، وعندما تكاتف الشجر، وغزر العشب، تمددنا، كنت منتشيا برائحتها التى امتزجت برائحة الحشائش والأرض غير الممهدة، ارتكزت إلى مرفقى، فوجئت بعمق عينيها وخصوبة وجنتيها، جمالها المتصاعد فى هدوء كزحف الظل، لا يلحظ إلا بعد اكتماله، وقع امتزاج بين عناصرى ومكوناتها يستعصى الإفصاح عنه، يجب أى معنى.

بسطت ساعدى تحت خصرها فدغدغنى التناقض بين رقته ومشارف الردفين الممتلئين، فككت أزرار قميصها مستقبلا نفور نهدها الأيسر بشفتى..

ـ انتظر.. هنا صعب.. صعب..

لم أقدر على الكف، غير عابئ بما يمكن أن يبزغ فجأة، لم يحدث ذلك منى، لكن عبارة مارقة ترددت عندى قالها صاحب لى أمضى سنوات هنا. قال إن لممارسة الحب فى الغابات والحدائق شأن آخر.

استدعيت ما رأيته فى شريط سينمائى عندما تجردت البطلة تماما وراحت ترقص على حافة النهر ملوحة للبحارة العابرين.

لم أتوقف، أكملت سعيى، وعند لحظة معينة تحولت مقاومتها إلى مجاوبة، لم أنه عادتى عن التحديق متطلعا فى أوجى، وجهها حديقة من الرغبة، وتاريخ كامل من ثراء أنثوى غزير، دفست أنفى مابين عنقها والكتف. فاتصلت بالأرض، جذور النبات، التراب المندى. الهواء النقى المرتد، الزرع الغامض، الشجر الغامض، ملح جسدها. كنت أحتوى هذا الموضع كرمز للكوكب كله. وعبثا حاولت الوصول إليه فيما تلى ذلك، فكأنه تذرى بددا..

غرفة الضوء..

.. لم أعرف ولم أنزل فنادق المدينة، دائما كنت ضيفا على صاحب لى جاء البلاد منذ سنوات وأقام. استقر فى مبنى قديم، فى كل طابق مسكنان. ولكل غرفة صغيرة فوق السطح، يقولون إنها غرفة الغسيل، أو لإقامة الخدم، ولكن مع ازدياد حدة السكنى بدأ تأجيرها، خاصة للأجانب، غير أن صاحبى الحميم لم يقدم، وضع فيها فراشا بسيطا، ومنضدة صغيرة ومقعدا، وثبت أرففا إلى الجدار رص فوقها الكتب، وأطلق عليها الصومعة، قال إن المرء يحتاج إلى الوحدة والانفراد بالذات، مرة أو مرتين كل أسبوع يفارق امرأته وابنه طالب الجامعة ويجيء ليمضى ساعتين أو ثلاث، وربما يقضى الليل، عند وصولى يلح على أن أقيم معهم، ولكنه يستجيب لرغبتى. الإقامة فى هذه الغرفة الضيقة، القريبة من السماء، المطلة على المدينة، معظم المعالم الشهيرة تلوح من هنا.

هنا.. تعددت مرات لقائنا، قلت إننى أرغب فى ارتباط المكان بها، بوجودها، بحضورها، ثم اعتدناها معا، كانت تجئ إلى محطة القطار القريبة، أنا المنتظر دائما، كنت أعجب من قدرتها على الوصول فى موعدها بالضبط.

ذات ظهيرة رائقة، بعد تناولن االغداء فى مطعم صغير قرب الأوبرا، احتسيت نظراتها، وكنت على استعداد لإشهار السلام

مع الدانى والنائى، ونسيان كافة كدوراتى، ومشاحناتى وخلافاتى، كنت على استعداد للرحيل صوب اللاجهة، حال غريب لم أعهده، مماثل لهواجمها المباغتة، تقول فجأة وهى قربى:

ـ إننى خائفة..

ـ من أى شئ ؟

ـ لا أدرى.. لا أعرف..

تنكمش، تزداد اقترابا، لكنها تتقوقع أكثر، قالت إن الخوف المباغت من الوحدة يفاجئها رغم مضى الأوقات الطوال عليها منفردة. أحيانا .. إذ تغمض عينيها أثناء غسيل وجهها أو استحمامها يخيل إليها أن أحدهم يقف خلفها، وانه على وشك الانقضاض فجأة، كانت تخشى إغماضة عينين لا يعقبهما صحو، تخشى موتا طارئا. مفاجئا، بقاء جسدها مسجى فى البيت الصغير حتى يكشف أمرها مصادفة..، إذ أصغى إلى ألفاظها القليلة. المضطربة، أضمها بحنو شفاف فتستكين تماما. عندئذ أرصد هجرتها صوبى. فأود لو صرت منها فى موضع مح البيضة من صفارها، أو حدقة العين من سوادها، إذ تخفى ملامحها فى صدرى تنقلب فى لحظة إلى طفلة وجلة تخشى عالما مجهولا.

ظهيرة هذا اليوم خرجنا من المطعم، نوسع الخطا فى

الشوارع الخالية، تسبقنى رغبتى. تكاد هيئتى تشى بى، عبرنا النواصى. صعدنا السلالم الثابتة والمتحركة. وعندما زوينا إلى المكان المحدد بدا من أمرنا عجبا. نال التعب منا فلم نفق إلا والليل مكتمل، كانت الحجرة تضاء بأصداء ألعاب نارية تطلق لمناسبة ما، أصغيت إلى أنفاسها الهادئة. المنتظمة. تحملت خدر ساعدى إذ لم أشأ إزعاجها. فوجئت بهمسها فى الصمت:

ـ صاحى؟

ـ نعم.

قالت بهدوء إنها تريد أن توضح أمرا، لا يوجد بينها وبين أى شخص علاقة خاصة، قالت إنها لاحظت كدرى بعد زيارتنا إلى ابن بلدتها هذا.. بعد صمت يسير. قالت:

ـ يجب أن تفهم ذلك..

عجبت لهذا التوضيح المفاجئ، المتأخر. استوقفتنى اللهجة الصارمة تقريبا، أو هكذا بدت، لزمت صمتى. ولم أستطع إقصاء صورة هذا الشاب عنى.. جاءنى صوتها فى العتمة أكثر تحديدا..

ـ يجب أن تثق بى..

كلماتها كالبرقيات. مركزة. خاطفة، قالت إنها تفهم كل تلميحاتى. والغرض من استفساراتى، ثم أشارت إلى الفراغ..

ـ لم يحدث هذا بسرعة إلا معك..

ثم قالت:

ـ ومادمت معك فمستحيل وجود آخر..

كنت مفاجأ. حائرا. وكان وجود هذا الشاب يدنو منى..

غرفة الصدع..

. عبثا استعادة الطريق الذى سلكناه.

مستحيل تذكره. كأننى راغب فى محوه، لكم مررت بالمداخل المؤدية والميادين المفضية فلا أستدعيه بفكرى، وربما مررت أمام المبنى الذى يحوى تلك الغرفة فلم أره.

يوما تقدمتنى مبتهجة. مقبلة. ضاحكة، عندما فتح الباب الخشبى القائم لم تصافح الشاب الذى بدا فى ملابسه المنزلية، إنما وضعت يدها فوق كتفه وقبلته مرتين، بادلها اللثم. مرة على الوجنة اليسرى. وأخرى على اليمنى.

استهجنت ذلك وكتمت، مع علمى إنها عادة مألوفة فى تلك البلاد، هى منذ سنوات سبع هنا، رصدت بدقة تدفق مرحها وسفور بهجتها. توهجها، مد يده متحفظا. قالت:

ـ حدثتك عنه..

التفتت إلى، أمسكت يده، ثم يدى، غطت الاثنتين براحتها.

شبت إلا أننى لم أبد ودا، أو استجابة لجياشـها. استندت إلى الجدار، حشية فوق الأرض للنوم، مكتب صغير فوقه ملفات وأوراق وكتابان فقط، وكوب صغير من خزف تطل منه أقلام، ثمة شبه مابين ترتيب الغرفة هنا، وحجرتها هناك، أعرفها الآن من الظاهر والباطن، مايرى ومالا يرى منه،ا الصمت الذى يعبق به الفراغ. الضوء النهارى، وهنه وخفوته بعد اسدال الستائر الشفافة.

حجرته صارمة الأضلاع، أضفى فراغها بعدا مضاعفا، فى مواجهة الباب صوان نحيل يصل مابين الأرض والسقف، فتح جزءا مربعا منه، برز موقد كهربائى، من جزء آخر تناول طبقا به حمص مطحون، وطبقا به قطع من الطماطم المملحة وشرائح باذنجان وفلفل اخضر، وضع مقلاة من الصاج، خفق البيضات الست، سعت إلى قالب الزبد. وقطعة الجبن، بيدها اليسرى ،مسكت السكين، كانت تكتب بها، وتشير، وتؤكد، تعرف مواضع الأطباق، والملاعق. تتصرف بتلقائية، تقدمت.. أشارت..

غاظتنى صيغة الجمع. حنقت من اعتبارها إياى ضيفهما، بدأ ركود داخلى، لم يرق لى تبسيطهما معا. حوارهما باللهجة الشامية، مأواها ومسقط رأسها هناك. ابن مدينتها، لابد أن تاريخا طويلا يربطهما، لكن.. إلى أى حد؟

فى هذه الغرفة بدأ وسواسى!

كيف تتحدث إليه عندما تجيء بمفردها؟

الحشية المستطيلة، المفرودة فوق الأرض، هل تمددت فوقها؟

هل تجردت هنا؟

فى ليلتنا الأولى معا راحت وجاءت ببساطة، غير خجلى، واجهتنى مقبلة ومدبرة، مع أننى جلست متكوما وحاولت بسط ملاءة بيضاء لأخفى مابدا.

هذا الشاب، هل رأى إغماضة عينيها وعض شفتها السفلى عند ملامسة مشارف عالمها الحسى. هل تطلع إلى انفراج فمها المتمهل، ما أثار عندى رعشة المتعة، هل أحكمت ضم ذراعيها حول خصره، هل أصغى إلى توتر جسدها وانفراجاته المتوالية عند بلوغها الأوج؟، هل أصغى إلى دعتها وسكونها عقب إيوائها إلى الرضى. هل ترددت آهاتها هنا؟

ـ تبدو شاردا..

أستعير ابتسامة من بعيد..

ـ لماذا لا تأكل؟

قال صاحبها:

ـ لا تؤاخذن .. إنه أكل الطلبة..

بالعكس!.

حاولت إبداء استحسانى، واستمتاعى به، سألنى عن المدة

التى سأقضيها هنا، نصحنى بزيارة متحف الفن الحديث. ثم قال إنه يوجد متحف لكل ما يمكن تخيله هنا، لا أدرى كيف تداعى الحوار حتى وصلنا إلى الانتحار. بدا منفعلا وهو يتحدث عن الموت الإرادى، أفاض. رأيت فى نبراته تكلفا ما، انتبهت إلى تطلعها. إصغائها، هل تشاركه أفكاره؟، قلت لنفسى إنها هموم مجردة لمن يعيشون بعيدا عن أوطانهم.

عند انصرافنا أبدى أسفه لأن صاحبته اليونانية لم تأت. ارتبت، هل له صديقه فعلا؟ أو أنه يقصد التمويه؟

عندما فارقت الغرفة تنفست بعمق، كأننى أخرج من قبر. عند الناصية سألتنى عن صمتى. هل بدا منه مايضايقنى، هل أخطأت بتقديمه إلى؟ لم أقل إجابة واضحة، إنما تطلعت إلى الخلف. وعندما اختفت البناية لم أستدل عليها، لم أهتد اليها حتى الآن، حتى ملامحها زالت. عبثا حاولت استعادتها عندما دنا موعد ذهابها، قالت مبتسمة:

ـ مالك ؟

ـ تعرفين أن أيامى هنا محدودة، وأن مدتى قصيرة ما أرجوه أن أراك منفردة..

ـ تضايقت؟

ـ لا..

ـ إنما أردت أن أعرفك بالأقربين حتى ترى عالمى

ضغطت يديها.

ـ أنت عالم بأكمله.. ماحاجتى إلى الآخرين حتى أعرفك؟

شتات الأماكن..

.. نفرت فجأة واقفة، مرت بشعرها متراجعة إلى الوراء قليلا.

رأيت كبرياء نهديها واكتمال شموخها..

ـ تأخرت.

ظننتها ستمضى الليلة إلى جوارى، فى هذه الغرفة المطلة على أفق المدينة أعرف إصرارها الحاد إذا حان وقت انصرافها، لا يمكن إيقافها أو تعطيلها. جلست عند حافة الفراش متطلعا عبر النافذة المفتوحة، مصغيا إلى أصداء المدينة الليلية. فكرت فى اقفرار الشوارع، وخلو محطات المترو. مخاطر محدقة، قمت متأهبا لارتداء ملابسى.

ـ لا.. لاترهق نفسك..

قالت إنها اعتادت الحركة بمفردها ليلا، هذا عادى هنا، صحيح.. ثمة مخاطر، لكنها قاصرة على بعض المناطق، طريقها آمن إلى حد ما، تساءلت، كيف سأعرف بوصولها سالمة، الحجرة هنا خلو من هاتف. داعبت شعرى ضاحكة:

ـ تقلق على..

أحطت قبتي ردفيها. أسندت رأسي إلى انبساط بطنها، كنت جالسا وهى واقفة، أتضور قلقا وشكا وضيقا، بينما تتعجل انصرافها، مبالغة فى إبداء الرقة نحوى.

إنها تقيم بمفردها. ما الفرق بين قضاء الليل هناك أو هنا؟ هل تخفى أمرا، إن صمتها الطويل يحيرنى. تميل على، تقبلنى، مدركة لبعض ما يدور داخلى، قالت إنها تتمنى ليلة سعيدة، أصغيت إلى خطواتها المبتعدة فى الممر الخارجى بعد إغلاق الباب، أوعر وقتى ما يعقب انصرافها. أما انتظارى قدومها فكان مبعثا لطلاوة وخشية ممتزجة بتوقع جميل، أتطلع إلى الساعة، الخامسة. قبلها بثوان أو بعدها، مجرد ثوان فارقة. أصغى إلى وقع خطاها. قصيرة، سريعة، مهموسة، تقابل الأرض بمقدمة حذائها. لذا كانت تمشى بميل قليل إلى الأمام، قبل أن تمد يدها لتطرق الباب كنت أبادر متهللا. مفسحا. مستمتعا بدخولها، قبل اقترابى وبدء تماس مدارينا.

ما من لحظات أبهج من سماع خطواتها المقبلة.وأنا داخل تلك الغرفة، وما من لحظات مرتبطة بهذا المكان أستعيدها فينقبض قلبى ويتمرر وقتى مثل خروجها وإصغائى إلى ابتعادها، بعد تلك الليلة لم تعد قط إلى الحجرة، إصرارها حيرنى، لا أدرى كم لبثت جالسا بينما أوار ممض يزداد اتقادا عندى.

كم انقضى على؟

لم أدر. لكننى لم أعبا بتوغل الليل. وجهلى بدروب المنطقة، فلم أتجول ليلا إلا نادرا، أعى دائما ضعف الغريب، واستهدافه، فارقت الحجرة، على ورقة صغيرة كتبت الحروف والأرقام التى يجب أن أضغطها حتى يفتح الباب الخارجى عند عودتى، أما الخروج فكان ميسورا.

خارج محطة المترو القريبة يوجد هاتف عام.

أدرت القرص سبع مرات. هذا الرقم الذى رددته مرارا، وحفظته ذاكرتى حتى زمن قريب، عندما بدأت بعض أرقامه فى تبادل مواقعها أو المحو.

لا أحد يجيب!

أعدت الكرة أربع مرات. حتى أننى فى المرة الثانية نطقت الأرقام بصوت مرتفع، كلا.. لا يمكن أن أضل عنها.

رنين، رنين، رنين..

أين ذهبت إذن، أين اتجهت ؟ لا يمكن أن تهمل الرد، هكذا اخبرتنى عندما أطلعتنى على دقائقها، ولكننا بعد انفرادنا فى الليلة الأولى. أبطلت الجان، قالت انها لن تستجيب لأى نداء قادم من الخارج، لاتريد إزعاجا من أى مصدر أثناء ممارستنا العشق!، هكذا قالت بوضوح وصراحة، لم يكن عندها ما تخفيه، أو هذا ما توهمته، وما من لفظ تتحرج منه إذا نطقت، غير أن لفظها نادر، شحيح، تطلعت إلى الهاتف بعد محاولتى

الرابعة بائسا، حانقا، لا أعرف ماذا يجرى فى مكانها هذا؟ هل يرن الجرس فى فراغ يخلو منها؟ أو أخرسته عامدة؟ إذن.. من بصحبتها الآن؟ هذه اللحظة بالذات؟

مجرد رؤيتى لها بالخيال راقدة بجوار آخر تدفعنى إلى هذيان مطلق واضطراب جلى، لا أقدر على تخيل حاسة أخرى سوف تتنسم عبيرها، أو أنامل تمر على مسام جسدها، أو تحيط خصرها الهش. عينان يتطلعان إليها من تلك المسافة القريبة؟

عناصر القلقلة تلك. تطيح بى. تدفعنى إلى كل صوب. وتقذفنى إلى كل جهة.

هل أتجه إلى بيتها؟ إلى الشارع الذى أستعيد كل شبر منه، تقطعه مرتين أو أكثر كل يوم. تظهر فى فراغه عند مطلع الصبح وعند مغرب الشمس، تحتل من فراغه حيزا.

أعرف رمز الباب. إذا مافتحت الباب والنعاس يثقلها أبدى اعتذارا، لكم قلقت عند اتصالى بها وانعدام الإجابة. أنطق هذا وعندى شك فى وجود صاحبها بالداخل، ربما أتطلع عبرها، ربما أسألها مباشرة مستعيدا فى تلك اللحظة صراحتها الناصعة. أو أستسلم لاتقاد نيرانى. ألج فراغ الشقة، أستمر حتى الحجرة الداخلية. لا أعرف ردود أفعالى لو أننى رأيت هذا الشاب أو غيره، هل أنهار باكيا أو أتطلع إليها بقسوة، لم أختر بالدقة رد فعلى المتخيل.

كيف انقضت تلك الليلة؟

هذا ما يثقل على استعادته. وإن كنت أثق أنها نقطة من معالم تحويلات مسارى. عند الفجر عدت إلى الغرفة. لكم بدت ضيقة. لم تكن تخصنى، أو تخصها. ولكنها تنتسب إليها فى كل مرة أستعيد فراغها المحدود، وحضورها قربى. واقبالها على، وحدبها. وإصغاءها. وإيماءاتها. وتلك الدموع التى سحتها فجأة. ذات عصر على غير توقع، لماذا بكت؟ لماذا لم تجب عن تساؤلاتى. لماذا تألق حزنها بقية اليوم كماسة سوداء؟ بعد انتفاء إمكانية لقائها، استحالة الاجتماع. سعيت إلى كل موضع وطئناه معا عدا مسكنها، مررت بأطوار عديدة. فى البداية خشيت مجرد الطواف أو الدنو من مقهى جلسنا فيه معا أو قاعة أصغينا فيها إلى عزف، أو حديقة تنسمنا فيها العبير. كنت أوهى من تحمل التداعيات، حتى غرفة صاحبى نأيت عنها، واعتذرت له بأمور شتى. وبعد مرور الوقت، ومع تكرار مجيئى خفت موانعى فسعيت. حمت حول بيتها وأنا لا أعرف إذا كانت مقيمة فيه أو فارقته، أمضيت أوقاتا طويلة فى المقهى، وعندما جهلتنى صاحبته انكسر عندى أمر أجهله.فلم أعد أعبأ بالتردد عليه، لم يعد المقهى هو عينه، ولا الطرق التى قطعناها معا. ولا الواجهات التى تأملنا محتوياتها. ولا الزوايا التى اخترنا الجلوس فيها داخل المطاعم التى ارتدناها. وعيادة طبيب الأسنان فى المبنى العتيق.

وصحبتى لها عند ذهابها إليه. والمصعد الضيق الذى ضمنا، رغم اعتيادى وألفتى كانت أماكنها تبدو مغايرة، قصية،

من رحم .. إلى رحم ..

ملكتم فـــؤادى فـــصـــار الهـــوى
على رقـــيـب ، رقـــيـب ، رقـــيـب ،
فـــلا تقـــتلونى كـــذا عـــامـــدا
لأنى كـــئـــيب كـــئـــيب كـــئـــيب
وإن كـــــان لابـد مـن قـــــتـلـه..
فـــقـــولوا غـــريب غـــريب غـــريب
مـــتى يجـــمع الله شـــملى بكم
فـــقـــولوا قـــريب قـــريب قـــريب

من موسيقى الآلة المغربية

نوبة العشاق - صنعة متقارب

(خروج)

وصول..

«شتاء لم نعرفه منذ أربعين سنة أو أكثر..»

لم يتوقف عن تدوين السطور المعتادة، متجاهلا الفضول البادى عند موظف الاستقبال ذى الشارب الكث. الاسم الثلاثى، تاريخ ومحل الميلاد، الجنسية، تاريخ الوصول إلى الأردن، عنوانه فى مصر..

«تاريخ المغادرة؟»

يتردد لحيظات قبل أن يكتب: أسبوع!

لا يعرف المدة التى سيقضيانها، لكنه فى كل الأحوال لن يتجاوز الأيام العشرة، ليلة واحدة فقط سيمضيها بمفرده، غدا قبل انتصاف النهار ستقف هنا لتدون تلك المعلومات ولكن بلغة أخرى، حقيبتها على مقربة، سينظر أصابعها النحيلة،

المتناسقة. المتلامسة، المنفرجة أحياناً. المتضامة حول القلم، يتخيل سرحاتها عند العناق فوق سطح ظهره، يسرى خدر، توقع بالمباهج التى استدعاها شهورا طويلة على البعد القصى، وربما تنظر إليه بغتة، سرعان ما تنقلب نظرتها إلى تأمل متمهل، واعد، بها يبدأ السعى، وإليها القصد، يعيد الالتفات إلى الصخور المتراكمة الموغلة فى العتاقة البادية عبر الواجهة الزجاجية، قطعا ستتجه إليها مباشرة، انفعالاتها متأججة، حادة، متدفقة حتى لينطوى أمامها أحيانا غير قادر على احتوائها، أو التجاوب معها، كأنها ترحل أول مرة، مع أنها جابت الكوكب تقريبا.

بدءا من الغد سيكون معها بمعزل، بمنأى، بعيدان عن كل نظام، يكتشفان معا ما بداخلهما. المكان الموغل فى الصخور الأزلية، ما لن يبصره ستراه، وما لن تلحظه سيلفت نظرها إليه، منذ اقتراب موعد سفره الذى حدداه معا عبر الهاتف وحضورها يقوى قربه، مرة تتطلع إليه من الصحراء التى شطرها الطريق الفسيح، ومرة من خلال الوديان والمرتفعات المغطاة بالثلوج، أو عبر الغمام الذى سبحت الطائرة خلاله. بدا اقتران اللون الأبيض بصفرة الرمال والسفوح الجرداء استثنائيا غريبا عنده، يبدو الجليد منطقيا فى موطنها الشمالى، لكن هنا؟!

الصفور..

ياه..

لو أنها بجواره الآن، لو تم وصولهما معا، أى دهشة تبديها لحظة ازاحة الستارة عن النافذة الممتدة بعرض الغرفة؟

أى عبارات تصيح بها؟

من هنا يمكنه رؤية مساحة أكبر من تلك التى طالعها عبر الطابق الأول، لم تفقد براءة الاكتشاف قط، حتى أنها تواجه صباح كل يوم فى مدينتها وكأنه أول نهار يطلع عليها فى الدنيا.

لن ينسى أبدا توقفها المشدوه، المأخوذ، أمام سبيل عبد الرحمن كتخدا، توقفت فجأة ثم خطت متمهلة. استقرت عند مدخل درب قرمز المواجه.

قعدت فوق حجر ناء عبر الزمن القديم، لامست ذقنها بأصابعها، رحلت إلى الواجهة بصمتها، بتحديقها، إلى المقرنصات، الزخارف، الزوايا، الأغصان المجردة، أشارت إلى الآيات القرآنية المحفورة، المعلقة، المتعانقة فوق الواجهة..

«هذه ليست كتابة»

قالت بيقين:

- «إنها عبادة»

لم يعلق إنما أخذ عنها رؤيتها إلى الأشياء، وتعلم أن يرى الجمال المتفرد حيث لا يتوقعه إنسان، يثق أنها لو كانت بمفردها لتحدثت إلى الجماد معبرة عن انطباعها. إذا كتمت ولم تصرح فانها تدون.

هذا الدفتر الصغير الذى تمسك به أحيانا لتثبت ما تخشى فقدانه من ذاكرتها، ما يفلت، ما يصعب عليها حفظه، تكتب بيدها اليسرى، عندئذ ينشأ تكوين مغاير لكل ما يعرف. لكم استعاده متمهلا، متمعنا، مرفرفا بالغوامض المستعصية على التفسير والتى لم تدركها عنه إلا هى. من تلك السطور، المفردات، الرموز، الإشارات، تصيغ ما تكتبه، ما تنشره عن أسفارها فى تلك المجلة التى لا يمكنه قراءة مضمونها لجهله بلغتها واستغلاقها عليه.

قبل ساعات من مغادرتها القاهرة جثا أمامها، كانت منحنية إلى الأمام، تحدق منطلقة إلى داخله مباشرة. كان يبذل الجهد والمحاولة لتثبيت كافة ماسيفقده.

ـ «السفر موت أصغر..»

قالت هامسة:

ـ «لولا الإقلاع لما كان الوصول»

هز رأسه متأسيا شاكيا، مرددا:

ـ «الرحيل موت بالحياة».

ضغطت يديه.

ـ «لولا السفر لما التقيتك..»

طالعها بملامح أسيانة مثقلة بمثولها عنده وملامحها التى تهمى عليه، محاولته التثبت بلحظات آنية مولية، يود لو أنشب نفسه فيها، أن ينقشها على ذاكرته، أن تتحول اللحظات إلى صخر يبقى ولا يفنى، يستعصى على الاندثار، على الفقد. لكم خشى لحظات آتية قد يبدأ عندها النسيان!.

حاول أن يثبت عبيرها الخاص المنبعث من شعرها، من مسامها، من ثناياها، كينونتها، استسلمت لطقوسه الخاصة، حتى ملابسها احتضنها وقبلها.

«وما يمر بى يستعصى على لفظى.. لغتى لا تساعدنى».

يدكها الشجى.

«لا معنى لأى لغة الآن».

تطوقه.

«تكلم بالعربية..»

يتداخل اللفظ باللفظ، يرتج عليه الأمر، فى ذروة اندماجهما، إيغال كل منهما عبر الآخر، لا تغيب عنه اللحظات التى سيقع فيها الافتراق. عندما تتحول النشوة المادية إلى صور للذاكرة، تردد:

ـ «عش لحظتنا».

يقول:

ـ «لكنها فانية.. مولية»

يطيل النظر إلى الصخور المتراكمة منذ الأزل، تكوينات غاربة، يتصل الصخر الجهم وينفصل، يتضام ويتفرق، قباب مضغوطة، ملامح آدمية ناقصة ومكتملة تحد الأفق، داخلها ترقد المدينة القديمة.

لا يمكن رؤية ملامحها من هنا، لابد من عبور السيق، عندما سمع الاسم أول مرة، قال مصححا:

ـ «الشق»

هز الموظف كث الشارب رأسه.

ـ «ماذا يعنى ذلك؟»

ـ «لا أدرى.. ولدنا لنجدهم يسمون الممر الصعب هكذا..»

سيمضى بصحبتها عبره. سيكتشف الأطلال القديمة معها. فى القاهرة كان دليلها. وفى مدينتها تقدمته عبر دروب يجهلها وقادته للوقوف أمام معالم لم يعرفها إلا فى الكتب والأفلام السينمائية، هنا.. سيكتشفان معا البتراء، سيرى ما تراه لأول مرة. منذ سبعة شهور وأربعة أيام لم يتضاما، لم يرها، لم يلتقيا، يخفق قلبه، ينتشى إذ يستعيد الإيقاع القديم،

ظن أنه ولى، لن يسترجعه مع تقدم العمر، زمن فتوته الأول، عندما كانت ظروفه أشق، أصعب، لكن إذ يمضى إلى لقاء محبوبة تعلق بها يشف ويخف حتى ليكاد يمشى على الماء.

أمامه وقت اليوم، لكنه لن يمضى إلى المدينة القديمة، لن يعبر السيق بمفرده، منذ افتراقهما أضيف الى عمره مقدار، إلى عمرها، زمن اكتمل بمنأى عنه.

إلى كل بلد رحلت إليه خلت بنفسها وخطت سطورا إليه. من خلال كلماتها يرى ذاته من جديد، عندما أخبرته بمشروع قدومها إلى البتراء أبدى استعداده، أخبرها بإمكانية تدبير أمره، منذ ثلاثة شهور يتطلع إلى لحظة ظهورها المرتقب، إلى لقائهما هنا، إلى أيام يقضيها بصحبتها تطيل أجله المقدر، تضيف إليه حتى مع نقصه، بحيوتها، بدهشتها البكر، بفيضها الأنثوى المرتقب. بمرحها المباغت، بجوهر طفولتها الذى لم ينل منه الوقت!

هنا سيحقق معها ما رغبته، ما صرحت به، ما قابله وقتئذ بدهشة وخوف، الآن أصبح متهيئا للقبول.

فى مدينتها، فى ذلك المقهى الصباحى المطل على النهر المروض بدت صامتة. يعرف ملامحها عندما تنوى الإفضاء بأمر صعب، أو شئ تخجل منه. بقدر رغبته فى إطالة لحظات حيائها الانثوى بقدر تعجله سماعها والإصغاء التام، لامست يده بأصابعها. قالت:

ـ «تعرف أننى لم أنجب من زوجى..»

أصغى.

ـ «وتعرف أننى بعد ثلاثة أو أربعة أعوام سأبلغ مرحلة يصعب فيها ذلك..»

استعاد صحبته لأمه منذ حوالى ربع قرن، جلس فى مواجهتها عند الطبيب الذى بدأ يستفسر عن أعراض المرض، ثم سألها عن العادة الشهرية، فردت فى صوت خافت جدا: إنها منقطعة منذ عامين، يومها انتابته دهشة، إذ يقف على أمر خاص جدا يتعلق بأمه مصادفة: دخولها سن اليأس!

تسارعت دقات قلبه، ضغطت يده.

ـ «أريد طفلا منك..»

يقترب من النافذة، مبتعدا عن وسط الغرفة يميل مستندا الى الحد المعدنى الداخلى، ملصقا وجهه بالزجاج المحكم، تماما كما فعلت عندما تطلعت إلى حديقة البيت المملوكى عبر المشربية. سور الفندق من حجر وردى، يبدو حمام السباحة ضيقا طارئا على المكان، يتجاوزه إلى الصخور الوعرة، ستحتويها بالبصر غدا، سيصبح لتلك التكوينات الهائلة بعدا مغايرا.

هذه التراكمات الصماء، تضج بحركة يصعب إدراكها، منتمية إلى أزل سحيق، أكثر مواضع الكوكب شيخوخة وحيوية.

أين قرأ أن المكان زمن تجمد أما الوقت فمكان يسيل باستمرار؟ يتغير، ما هذه الصخور إلا قرون بلا حصر، طبقات عديدة من أزمنة يستحيل إدراكها، يتابع طيورا دقيقة الحجم فجأة في الفراغ المتاح له رؤيته، ترتفع إلى علو شاهق، تغيب عنه يقين خفي أنها تبصره من مكان ما، خفي. أن ملامحها موزعة هنا وهناك، تتجاوز الأفق، حضورها الخفي الملازم، المستمر، المصاحب له منذ مفارقته ماديتها المحسوسة، ملامحها الماثلة.

عندما تجيء غدا يتصل وقتها القديم بلحظات قدومها، بأيامهما هنا، أما ما يفصل، ما لم يقضياه معا فلا محل له ولا شأن، هكذا قدر!

ينثني متأملا الغرفة، هذا الفراغ سيحتويهما، ما موقعه بالنسبة للشمس؟ للمجرة؟ للكون؟ إلام سيستحيل بعد فناء المنظومة وتذرى الكواكب في الفضاء السحيق؟

لكل وجود حد، حتى الزمن له انقضاء. فأين سترسو ذراتهما المتبقية؟ وهل تتعرف واحدة إلى الأخرى؟ أين مصير الصبوات والحنين؟ إذا كان العدم سيطوي ما يلمس ويدرك بالحواس، فهل سيبقى ما يستحيل رصده أو التحلق به؟

غدا.. بمجرد توحدهما، يسعى كل منهما إلى الآخر، يلتئم شطراهما لحظة تواجههما، يخبرها بما استقر عليه، اقتناعه بما أبدته، لا يمكنه تخيل رد فعلها.

أخبرها ببعض مما عنده:

ـ «إنى هرم».

ابتسمت:

ـ «تفيض حيوية، لكنك تتعجل الكهولة».

لا يصرح بشعوره الأقتم، يقينه أن ما مضى أكثر مما يبقى. إن الحد النهائى ربما يكمن فى اللحظة التالية، إن سعيه سوف يبطل وما من أمل موجود بعده، أما نفاده مع الواقع فمتزايد، سيقول إن رسوه عندها منج، يستمد من فوراتها جذوة وتوقدا.

على البعد يستحضرها فيحن، يهدأ إلى حين، إنما هى عنصر مصالحة، حتى فى بعدها واستحالة الظرف المواتى. يفتح حقيبته، يرتب حاجاته. الملابس فى الصوان، كتبه وأوراقه فوق المنضدة المجاورة السرير.

كوب ماء يحرص دائما على وضعه قريبا. قالت إن حرصى على الماء يعنى حاجتى إلى الأمان، عندما زارت بلدا أفريقيا على حافة الصحراء الكبرى قدموا إليها الماء، علامة أمن وطمأنينة، ونزولها من قلوبهم موقعا مكينا، ولطرد الأرواح الشريرة أثناء نومها.

قال إنه لا يعرف هذا كله، لكنه يستيقظ ليلا وجفاف حلقه ممض.

تضم شفتيها، تغمض عينيها، يكتسب وجهها تفردا وملاحة خاصة، قالت: أنت تؤكد ما أقول.

كيف يستقبلها غدا؟، لا يعرف موعد وصولها على وجه التحديد، هل يجلس إلى إحدى الأرائك الوثيرة المواجهة للمدخل؟ إذ يلمحها، يخرج غير عابئ بأى نظر، لن يقبلها، مجرد مصافحة، أما العناق فمؤجل إلى الانفراد.

لا.. بل قبلة سريعة ثم تخلل أصابعه لأصابعها، يصحبها إلى مكتب الاستقبال، غرفة مجاورة بقدر الإمكان، الفندق شبه خال، للتوقع لذة. وللاستعادة حسرة، أما اللقاء فمنقض حتى فى آنيته، هذا ما تدركه عنه، لحظة دخولها مجالا بصريا يكسوه جمود ناطق، يرجئ متعة الانفراد، قال يوما:

ـ «لا أتكلم كثيرا، لكن .. عندى فيض غزير».

مسدت شعره، قالت:

ـ «أحسك فلا تأس..»

يصغى إلى أزيز جهاز التكييف، يبث دفئا، تنبئ حدة الفراغ ومثول الصخور عن حدة البرد، تلك متعته القديمة، أن يرى المطر من خلف زجاج مقهى أو نافذة بيت.

رغم البرودة المتوقعة أغلق الجهاز، ضجيجه الخفى يفسد عتاقة المكان، أنفاسه ستدفئ الفراغ المحدود، غدا.. يستمد حرارته منها، يواجهان هذا الطلل الأبدى متعانقين، عاريين كما جاء إلى الحياة الدنيا.

فى المرة الأولى لم يفارقه خجله، فى العرى ضعف ما، وهن إنسانى لا يطيقه، أما هى فتحركت بطلاقة مفصحة، خرجت إلى صالة بيتها الصغيرة، متناثر فيها أوان معدنية وأخرى خزفية، تماثيل وأقنعة من جهات شتى حطت فيها أثناء ترحالها، قرب المدخل علقت إلى الجدار صفا طويلا من أوعية إعداد القهوة متدرجة الأحجام، مختلفة الأشكال. آنية موريتانية، أخرى من سيناء، ثالثة من حضرموت، رابعة من مسينا الصقلية، خامسة روسية، تفضل القهوة على الطريقة التركية، تهيم بالبن المخلوط بالحبهان وأعشاب غامضة، زيوت محفوظة فى قوارير من زجاج منمق. خلطة يتقنها رجل عجوز فى متجر لا يتسع إلا لجسده الضامر عند مدخل شارع المغربلين، رائحة البن القوية الفريدة تدل عليه من أماكن بعيدة. عند وصوله مدينتها استنشقت العبير من الحقيبة. صفقت. تهللت. لكنه عندما رآها تبتلع ملء ملعقة بنا مطحونا. تسفه سفا. أبدى جزعا. قال إن هذا مضر جدا بالكلى.

«لآخر مرة!»

إشارة أصبعها الطفولية، كانت عارية إلا من أيامها ولحظاتها، سيضج جسدها الفاره هنا غدا، سيترك كل منهما أثرا لا يمكن رصده، ربما جاء يوما من يسعى فى أثر الذين كانوا، عندئذ يكتشف أمرهما الذى كان!

قالت:

«إن جسدك جميل».

ثم قالت:

«ومتناسق..»

ثم تساءلت:

«لماذا تخجل؟»

قالت:

«حقا.. إن جسدك متناسق، قوى»

دهش. سمع مثل ذلك يوما ولكن فى لغته من محبوبة انقطع عهده بها، يرد طيفها عليه فى أوقات متباعدة، كأن ما اتصل بينهما وظنه لن يبيد أبدا يخص كائنا غيره، كأنه لم يكن بينهما أمر، هل سيتذكر لحظاته تلك من نفس الموقع.. لكن قبل اكتمال تساؤله هذا، يجمح إلى خاطر يقضه: هل ينتظره مقدار يوازى ما انقضى على الزمن القديم؟ أكثر من ستة وعشرين سنة مرت منذ أن تقطعت الأواصر، وخمدت الجذوة، هل سيقطع عين المسافة فى رحم الحياة؟، لو اكتمل ذلك، كيف سيرى لحظاته الآن.

هل يسخر عندئذ لإقدامه على السفر إلى بلد ينزله أول مرة، ثم يتجه مباشرة إلى الجنوب، إلى جبال الشوبك، إلى وادى موسى ليجاور البتراء؟

«أى خواطر تلك ؟»

يردد قولها المتكرر:

«عش اللحظة».

يتمدد، يمكنه رؤية الصخور راقدا، كلما ولى البصر كأنه يراها أول مرة، لا يفارقه اليقين أنها تكمن فى موضع ما، عند تلك الانفراجات، هذه الشقوق. الممرات البادية والخفية، لا يعرف أسبابا مباشرة لخجله من اكتمال عريه، ربما لتحذيرات والدته المستمرة عندما كان صغيرا، أن يحذر خلع ملابسه أمام الآخرين. أن يغلق الباب جيدا إذا دخل دورة المياه فى المدرسة. أن يحذر الأكبر منه سنا. كانت تصرخ ولا تلمح، مع تقدم الزمن عرف أن هاجسها وقتئذ حماية مؤخرته، أو كما سمع والده يحدثها عن ابن أحد الجيران الذى استدرجه حارس الفرن الأفرنجى القريب وضحك عليه!

«فى العرى المكتمل إثم ما؟»

«ربما».

حدثها عن أيام المعتقل، خاصة فترات التحقيقات المتوالية، إذ تفتح الزنزانة فجأة، يقف الضابط أخضر العينين ممسكا عصا غليظة، يصدر أمرا بالتجرد تماما، فإذا صدر الامتناع جرى التنفيذ قسرا، لحظة خلع القطعة الأخيرة يقترب، يمعن النظر، ثم يشهر عصاه هاويا فوق الكينونة العزلاء كيفما اتفق، عندئذ يتم عصب العينين، لم يكن همه متجها صوب الضربة

المباغتة أو الحاجز الذى يمكن الاصطدام به أثناء الجرى صوب اللاجهة بينما يستمر اصطكام العصى بالجسد المكشوف، إنما كان همه أن يستر ما بين فخديه بيديه، يقول:

«لا يتم اختيار ضباط التعذيب عبثا».

يقول:

«كلما استعدت ذلك يتجدد غضبى»

يضم قبضة يده.

«كنت عفيا، قادرا على المقاومة».

تميل مقتربة منه، تبدى الإصغاء العميق حتى تتردد أنفاسها فوق مسام صدره.. يقول:

«كان اليقين مكتملا بقدرتنا على تغيير العالم».

ثم يضحك ساخرا:

«لكن العالم غيرنا».

يلتفت إلى السرير المجاور، كأنه يتوقع رؤيتها، تضم ركبتيها، تسند ذقنها إليهما، وضع إصغائها الأمثل، ومصدر طق شروره، انحدر صوبها بغتة. تهمس داعية غير ناهية..

«كن رقيقا».

يستنفره الهمس، يتبدل للتو.

«إنى طوعك».

على مهل يعبر اللاجهة، الحد الفاصل بين اليقظة والنوم، سفر طويل، خروجه فجرا، إجراءات المغادرة، نظرات رجال الأمن المستريبة، انتقاله مباشرة من عمان إلى وادى موسى، حرصه على إجابة تساؤلات السائق، يوضح القصد من وصوله لمن يفضى إليهم بما يسمعه، حذر قديم متأصل واستراية دائمة، هذا الرجل متوسط العمر، البدين قليلا، رأسه، قال:

«معك حق.. يجيء الأجانب من آخر الدنيا ونحن لا نعرف البتراء كما ينبغى!»

شاب يعرفه فى المطعم شبه الخالى، لكنه لا يذكر ملامحه. ينتقل بين المناضد، ينظف أطباقا، يبدل الدوارق الفارغة بأخرى ممتلئة، يخدم زبائن لم يصلوا بعد.

حارس صعيدى، طويل القامة، يوصى بنزول السلم الحلزونى الحديدى الضيق بحذر، تتقدمه صوب المقبرة الواقعة على عمق مائة متر، عند المنعطفات الحادة تغيب عنه، يناديها، تتردد أصداء نطقها، تفرد طبقاتها، يتلاشى الضوء، يطول ترقبه.

يناديها.

ما من إجابة أو صدى!

يصحو متلاحق الأنفاس، كم انقضى؟

العتمة مطبقة، الصخر اندمج بظلمة الليل، كم غسق توالى عليه منذ اكتماله؟ منذ استواء الهيئة؟، تدهمه وحدة، يتوق إلى التواجد فى جمع.. قوى، أين هى الآن؟

ترتب حاجاتها؟

تجلس بمفردها فى الزاوية التى اعتادا ارتيادها بالمقهى؟

هل يتصل بالمطار؟

. لكنه يخشى سماع إجابة محبطة. عبر المذياع قال رجل وقور الصوت. إن منخفضا جويا يتمركز الآن شرق قبرص، يتحرك باتجاه المنطقة، أما العواصف المتوقعة فمن المنتظر ألا تكون فى عنف السابقة، طالب المواطنين بالحذر، أكد استنفار الأجهزة المعنية لتوفير احتياجات المواطنين، بدأ يذكر الطرق السالكة، والمغلقة، والتى يصعب مرور المركبات الصغيرة بها، عندما قال إن حركة الطيران تعمل بشكل طبيعى، قام واقفا.

هذا ما انتظره، ما يعنيه الآن، ارتدى ملابسه بسرعة وكأنه تخلف عن موعد هام، فارق الغرفة، لا يدرى إلى أين؟

الليل ..

.. يواجه الفراغ الليلى البارد، الأضواء المتناثرة المتدرجة على سفح الجبل المرتفع، المطل، المشرف.

خطاه فسيحة مسرعة، كأنه يحرص اللحاق بشيء ما، يريد بلوغ المنحنى بسرعة، يعرف أن عينى الحارس الواقف خلف الباب الزجاجى تتبعانه، يمعن مستكشفا، ليس بحاجة إلى تثبيت علامات فى ذاكرته، المبانى قليلة، والفندق من علامات المنطقة.

أصوات فتيان ..

يلعبون الكرة، فى نهاية لهوهم، قال موظف الاستقبال الذى بدا ودودا إن الناحية آمنة، بعض الأجانب يفضلون دخول السيق ليلا، يقضون ليلتهم فى أعالى التلال الصخرية، داخل المغارات الأزلية، المسكونة. نعم.. عائلات تقيم بها. سكان المنطقة، اسمهم «البدول».

«من أين جاءوا؟»

لم يجب بشكل قاطع، لكنه من غير المؤكد أنهم أحفاد الأنباط، لم يشأ إبداء دهشة السائح الغريب الذى يفتح فمه أو تجحظ عيناه إزاء كل مالا يعرفه لكنه أبدى تعجبا عندما سمع أنه الوحيد فى الفندق الآن..

«الجميع سافروا قبل المغرب، يخافون إغلاق الطريق..»

سارع الموظف:

«لكن غدا سيصل فوج صغير».

«أعرف..»

تابع مجيبا استفسار الموظف الصامت:

«لى بينهم أصدقاء..»

ابتسم ،كأنه أدرك عنه، وقال: إنه من المنتظر وصولهم حوالى الواحدة. سيجيئون من المطار مباشرة.

حتى الآن يمضى كل شيء على ما يرام إذا تعطلوا سيكون ذلك بسبب الثلوج، لكن تأثير المنخفض الجوى لن يبدأ إلا بعد الظهر، منذ بداية الشتاء ثبت دقة التنبؤات، أشار إلى أعلى..

«كل شيء مرصود بالأقمار الصناعية».

قال إنه يوجد أجانب فى المنطقة، يأوى بعضهم إلى فنادق صغيرة، أو يقيم بعضهم هناك، تحت، فى «المغر».

قال زميله الذى اقترب ليتابع الحوار إن بعض الأجنبيات جئن إلى البتراء ولم يفارقنها، تزوجن وأنجبن، يرتدين الآن الملابس البدوية، ويتحدثن العربية بلهجة البدول.

أول من تزوج أوربية دخيل الله، أمره شائع معروف، هامت به بنية سويسرية، جاءت إلى هنا فى العشرين من عمرها، دخلت السيق ولم تخرج منه إلا متزوجة به. كتبت إلى أسرتها تخبرهم بما لاقته، ما استقرت عليه، خلعت الجينز ولبست الجلباب البدوى، عاشت معه فى المغارة التى ورث الإقامة فيها

أبا عن جد. كانت تقف الى جواره فى المقهى الصغير ترتدى الخمار. تعد الشاى للزبائن الأغراب، تبيع زجاجات مليئة برمال ملونة يمكن كتابة اسم الراغب داخلها بطريقة يتقنها البدول، أنجبت طفلة جميلة واسعة العينين، كانت تجرى فى الوادى حتى سن السادسة. تحمل أوعية الماء. أو الطعام عند سعيها جوار أمها، هى الطفلة الوحيدة التى لا تهاب عند ظهوره..

«من ضبعان؟»

«حكاية تطول، لكن الكل ينتظر عودته منذ غيابه فى مجاهل البتراء».

قال موظف الاستقبال:

مؤكد أنه فى غرفة فرعون..»

تساءل الموظف الآخر:

«هل رآه أحد بعينيه؟»

«لا.. ولكن يسمع أحيانا صوته»

«حكايات.. مجرد حكايات»

كان ضبعان يجىء من وادى موسى إلى البتراء، إذ يرى الطفلة يدس يده فى جيبه، يقدم إليها قطعة حلوى أو عقدا من خرز، بعد ذهابها حزن عليها ولام والدها.

راحت الطفلة مع أمها، من كان يتصور أن الحنين سيقوى ويشتد بعد مضى سنوات؟ لكن هذا ما جرى للسويسرية، يبدو أنها تلقت ما يدعوها إلى السفر، إذ مرض والدها، هكذا قالت، المهم أنها صحبت معها دخيل الله. هناك أبدت عناية به وبذلت الهمة. عاشوا فى بيت من طابقين، تحيطه حديقة كبيرة بها جراج لسيارتين وأشجار تفاح وكمثرى وتوت وكريز وكل ماتشتهيه الأنفس. والدها عنده مصنع لعلب الساعات السويسرية النادرة. لم تقصر مع زوجها، أى رغبة أبداها سعت لتحقيقها، عرضت عليه وظيفة فى مصنع أبيها ليمضى وقته. كانت تثق من نجاحه، إنه ذكى.

يتقن خمس لغات. نعم .. أى رجل من البدول يتكلم بثلاث أو أربع لغات، المفاجاة أن دخيل الله أبى، أظهر الكدر، ونال منه الغم، طلب منها العودة لكنها رفضت، أبدى المسايرة حتى فوجئ القوم برجوعه وحيدا.

أمضى عامين متصلين قبل سفره ليرى ابنته، لكنه لم يمكث أكثر من أسبوعين..

قال موظف الاستقبال بلهجة قاهرية:

«غبى.. مش.وش نعمة»

أجابه مبتسما:

«يا عالم بالنفوس..»

يتوقف مجهدا مع صعود الطريق، تنأى أصوات الفتيان كأنها آتية من وديان سحيقة البعد، يتفرقون هنا تتنوع المستويات. السماء حادة الصفاء، مركز المدينة مازال بعيدا، لابد أن يصعد حتى يصل إليه. الطريق خال تماما. يتوقف. ما من مقهى، عزلة تلف سائر الموجودات.

الجهة الأخرى يبدأ السيق. المدخل الطبيعى المؤدى. لن يدخله إلا بصحبتها، برفقتها، لو أنها بجواره الآن، ربما تقترح عليه المضى، لا تهاب الليل ولا الانهيارات المفاجئة أو الأخطار المتوهمة القادمة من عصور لايعرفها، إنما يخمن ما دار فيها.

فى القاهرة أصرت على رؤية الأهرام فى منتصف الليل، وعند الفجر، لحظة الشروق، وعند الغروب، أمضت أوقاتا فى مواجهته تتطلع بلا نطق.

كيف سيرى انفعالها بالمكان هنا؟

لا يدرى.

من مكان قريب ينبح كلب نباحا متصلا، توقف كأنه لم يكن، تفد عليه الآن من سائر الجهات، تقتحمه كالغواية. يتوقف. يكف عن الخطو، يرقب الفندق.غدا سيضمهما هذا المكان، فكأن الأنباط لم يستقروا هنا، ولم يشيدوا عاصمتهم الفريدة إلا ليتبقى منها ما يغرى بالمجىء والفرجة عليه وتفقده، لينزلاها معا، يمضيا مقدارا من زمنهما معا. على مهل يخطو

عبر الممرات الممهدة، تمثل أمامه إشراقتها الأولى، تتكرر اللقاءات، يقع الاتحاد، لكن اللحظات الأولى لا تفنى ولا تستحدث، فى زمن فتوته كان ينطلق بين صحبه.

يقص عليهم أدق التفاصيل، فى وحدته يستعيدها مرارا، كأنه يحاول انشاء المتعة مرة أخرى، لكنه مع مرور الوقت أتقن الكتمان، حتى صار ما عنده أكثر مما يلقاه خارجه!.غير أن البدايات تظل ماثلة، يود لو يقيم لها نصبا من اللحظات.

عبير الطلع..

.. بناء احتوى النهار كله، اختزل جوهر الصحراء التى امتدت يوما، والخلاء الأبدى، هذا صحن مسجد ومدرسة وخانقاه فرج بن برقوق، لم ير رسما له، لم تثبت فى ذهنه أوصاف المؤرخين الثقاة، لكنه يتخيله متوسط القامة، عريض الصدر، بشوش الوجه، مقبلا على الدنيا.

يقصد المكان عند الرغبة فى الإفلات من ضيق نزل به، أو سعيا إلى حنين غامض، يوما صحبه أبوه إلى مقبرة قريبة محفوفة بالريحان. كأنه يستنشقه للتو.

يعبر طريق صلاح سالم، يحاول تخيل المكان فى الزمن القديم عندما توحدت العمارة ولم يجاورها بناء ضخم آخر، مع صعوبة الانتقال واستيحاش الطريق وطوله بالنسبة لأهالى

القاهرة. كانت تلك المنشآت الصوارى ترى من بعيد.

تحت شمس شتوية اليفة جلس مسندا ظهره الى قائم حجرى.. هل أغفى؟

ربما.

هل أغمض عينيه؟

مؤكد.

لكنه عندما اتجه بنظره لسبب خفى، كانت تقف فى مواجهة الإيوان الغربى.. كيف تمت وفادتها؟

متى ظهرت بوجودها المتمنطق بالحنين؟ لكن مجرد رؤيتها أثار عنده تحفزا، أحيانا يحرك ظهور أنثى مجهولة توقعا، أو حماسا، أو شجنا، ربما يضفى معنى تاما على حضور مدينة أو طريق.

وقفتها، استغراقها، ملامسة يديها لخصرها، لكم رأى أجانب هنا، مروا به ولم يتركوا أثرا، لماذا قصدها اهتمامه وتركيزه؟ لأنها بمفردها؟

لا يمكنه القطع.

لحظة رؤيتها تلك. هل كان ضبعان يسعى أم بدا اختفاؤه؟ أين البتراء بالنسبة له؟ مجرد اسم قديم علق بذهنه يوما. أين الطريق إلى وادى موسى؟ والملامح التى طالعها. والصخور؟

أين مكونات العاصفة الثلجية؟ مكونات ذراتها، عناصر هبوبها؟، ماذا عن تلك الأماكن المجهولة قبل ذلك عنده، يتعلق سمعه بها ويصره بالخرائط الموضحة لحالة الطقس.

انتقلت من تواجدها العابر فى صحن الخانقاه إلى مركز وجوده، عرفها وهى فى سفر، ارتبط الرحيل بسعيه صوبها، أحيانا تتصل به، تخبره أنها ستقلع عند منتصف الليل إلى المكسيك، إلى تايلاند، إلى بلد لم ولن يبلغه، يحزن، كأنه يودعها بالحضور مع أنه بعيد قصى، يتخيلها فى الطريق إلى المطار، مرورها البوابات، يعيش كافة التفاصيل التى يصر على الاستفسار عنها، اسم شركة الطيران، ، موعد الإقلاع، زمن الرحلة، يقلب الخرائط المتاحة، يرسم دائرة خضراء على مدينة ستحل بها لساعات، يعانى من ابتعادها عن بعدها! فى كل الأحوال هى نائية، لكن انتقالها يضاعف وحشته.

بدا هذا كله عند تلك اللحظة. لو أنه أطال الإغفاء، لو أنه حاد ببصره، تناله خشية. عدم تمكنه رؤيتها فى الزمن المولى، المنقضى، ألا تتصل أسبابه بها.

لم يتجه صوبها، إنما قصد الاتجاه القبلى مبتعدا، حتى لا يظن من يرقبه أنه يسعى إلى تحرش ما، أول خطوه نحوها مقترن بالحذر!

لم يلمح كائنا آخر، حتى الحراس الذين لا يكفون عن الذهاب والمجىء، غاب المترددون والمصلون، حتى من يلتمس

إغفاءة قصيرة، لم يفارقه هذا اليقين أن حركاته مرصودة، مراقبة من آخرين يجهلهم.

وقف أمام خلاوى الصوفية. ترى.. من أقام بها؟

أى تمتمات أو أدعية؟

أى شطح جرى؟

دائما يجهد الذهن والمخيلة لاستعادة ما اندثر، ما لحق بالعدم، بقدر ما جرى يضفى ذلك خصوصيته على الطابع، ألا تأخذ الجدران من ملامح ساكنيها؟

أقبلت ناحيته كالغواية، كالصبر، تعلق بعينيها الفسيحتين، أجابها:

ـ «مدفن السلطان هناك فى القبة البحرية..»

منذ تلك اللحظة لزمها. قصدا الإيوان الشرقى. القبة القبلية، البحرية، توقفا عند النقوش المطلة. والحشوات المشرفة والمقرنصات الصاعدة. تطلعا من شرفة المئذنة الشمالية إلى الأخرى الجنوبية. اجتازا عتبة الصوان الفرعونية..

ـ «هذا شعار رمسيس الثانى».

أبدت تعجبا. بمفردها لم تكن ستلحظ ذلك.

قال مزهوا إنه يعرف البناء حجرا. حجرا. خرجا معا. إلى القباب، الأضرحة، الواجهات الشاهقة، الحوارى الضيقة،

المقاهى الصغيرة. أشار إلى التراب. ذكر معنى بيت المعرى، خفف الوطء فإن هذه الأرض من أديم تلك الأجساد. حاول تقريب المعنى إلى اللغة الإنجليزية التى تتقنها تماما. بعد تناول الغداء أخرجت حافظة نقودها. خاطب الرجل طيب الملامح:

- «يجوز أن تدفع السيدة حسابها يا عم أحمد؟»

مال رأسه مستنكرا، نافرا:

- «لا يليق..»

اجتهد ليقدم إليها أقصى ما يُمكن ابلاغه عنه ومنه، حضورها المشع ينفذ عبره، تتداخل أوقاتهما.

كان راغبا فى رؤيتها من كافة جهاتها فى نفس اللحظة، الإحاطة بها والذوبان فيها. عند مدخل قبة قلاوون طلب منها التمهل. احتواهما الفراغ المؤطر بالنقوش، المنمنمات، الكلمات المقدسة.

قالت بصوتها الهمسى:

- «تبدو وكأنك جزء من البناء..»

طلب من الحارس إطفاء المصابيح الكهربائية، الشاحبة، الفقيرة، حتى تسبح فى الضوء الطبيعى العابر للزجاج الملون، النوافذ الخضراء، الصفراء، الياقوتية، الأشعة المروضة، المرمرية، كأن الشمس تبدأ دورة الفلك من سمت المكان.

وحدت الظلال حضورهما، قربت ما بينهما. بدأ عنده استنفار حسي حاول كبحه، حافظ على مسافة فاصلة حتى عند اقترابه منها وهبوب عبير شعرها وبدء تعرفه إليه، خاف الزلل. ربما ظنت أن هدفه الأول والأخير لقاء عابر. كل ما يمت إليها استوفزه. لكنه كتم. هكذا.. تحفظ عند اقترابه، أو عبورهما الطريق واضطراره إلى ملامسة يدها أو كتفها لتحذيرها مع أنها لم تبد نفورا، تعمد تأخير خطوه ليرى عنقها، وكتفيها المنحدرين في دعوة سافرة، خطوها إذ تلمس الأرض بأطراف، أصابعها، راقصة أبدا. دهشة دائمة كأنها ترى الموجودات لأول مرة مع أنها اطلعت على كثير وطافت الدنيا..

جرى اتصالهما الحسي الأول عبر الطريق الفاصل بين مسجد الرفاعي ومدرسة السلطان حسن، وعلى مرأى من مآذن مسجد محمد علي المشرف المطل من عل. عندما اتجها صوب الشارع المنحدر بعد ساعات طوال أمضياها في الشواهد الشواهق المشرفة على الميدان العتيق، كان مرهقا لكنه قادر على أن يتبعها إلى حيث شاءت، نظرت إليه. كان إقدامها قويا، مقتحما حتى ليتوقع مثولها في كل لحظة كما بدت. تخللت أصابعها يديه ليبدأ عنده مس لم يكف حتى الآن. يتجدد إذ يستعيده بالمخيلة. اتحدت أصابعهما حتى لم يعد قادرا على التمييز الحسي. لو شاء تحريك إبهامه أو خنصره لضلت الإشارة إليهما، تنقطع صلته بأطرافه وتتصل بها في الوقت عينه.

توقف.

شملها بالنظر، فهمت عنه وأدركت، كاد خفقه أن يحدث فى المعمار القديم أصداء. طاف بها المدينة، قصد أماكن اعتادها، أحبها لترتبط عنده بها، فإذا أتاها وحيدا، منفردا، استحضرها، يرى مالا يمكن لغيره مشاهدته، آثار مرورها يوما، فكأنها ماثلة أبدا.

قالت إنها ترحل باستمرار، لا تمكث فى مدينتها إلا فترات قصيرة، فكأن منزلها للعبور، وليس للإقامة.

ولدت فى الجنوب. قرية صغيرة قرب البحر. والدها فلاح قديم، أمها بولونية الأصل. تعرف إليها أثناء الحرب. لم ترهما منذ الصيف الماضى. كانت متزوجة. تعيش بمفردها الآن. مسكن صغير قرب النهر. حجرة وصالة فسيحة، مستطيلة، الجدران كلها مغطاة بأرفف الكتب. فى المساء تكون دائما وحيدة. عندها أريكة مستطيلة. تجلس فى مواجهة التليفزيون. تشرب جرعات صغيرة من النبيذ. ربما يدركها النوم واذ تصحو تثقل عليها الوحدة.

تلتقى بزوجها السابق أحيانا. إنه حكواتى مشهور، يقص على المستمعين فى صالات المسارح القديمة، يظهر فى التليفزيون مرتين فى الشهر يحفظ ألف ليلة.

لا.. لم تنجب منه.

كأنه يصغى إلى صوتها الآن. يستعيد دائما ندمها وحزنها

فى إجابتها، لم يمكنها عملها من أن تصبح أما، لكنها أعادت النظر منذ أن التقيا وتوحدا، العمر ينقضى أسرع مع اقتراب الأربعين..

قال إنه لم يتزوج لظروف شتى، مع دنوه من الخمسين يشعر أن ما تبقى أقل بكثير مما مضى، يوقن أنه لن يتجاوز الستين.تساءلت:

ـ «ألديك هاجس الموت؟»

أومأ. أجاب مفتتحا أول قوله وإفضائه:

ـ «الى حد يعيينى»

أبدت تعجبا:

«اذن .. أمامك أحد عشر عاما..»

تابعت:

ـ «هذه مدة كافية جدا..»

تساءل باقتضاب:

ـ «لأى شىء؟»

ـ «لتنجز ما تبغى..»

يظن أنه ضاق بما قالته. كأنه صرح بهاجسه وانتظر منها الطمأنينة، لا أن تقر وتعتبر هذه السنوات كافية، اكتشف أن

حزنه ليس على قصر ما تبقى، إنما لاستحالة عيشه أبدا، رغبة ألا يفنى، ألا يتذرى بددا، ألا يهن، أن يفعل غدا ما قدر عليه أمس، كيف تريد منه الاقتناع بتلك السنوات الإحدى عشرة؟. لكن هل يسعى إلى يقين عندها لا يستقر داخله؟

قال إنه فى موقع الأخ الأكبر، انتظر حتى انتهاء أشقائه الأربعة من مراحل تعليمهم، كان مسئولا عنهم بعد رحيل أبيه المبكر، المباغت، كل منهم تزوج إلا هو.

تطلعت صوبه مباشرة:

ـ «أهى الظروف أو رغبتك فى الانفراد؟»

عيناها الفسيحتان، الجميلتان، ذاتا الأغوار، إذ تتطلعان إليه لا يقدر على التورية. أو التخفى، تنفذ إليه بلا مانع يردها..

عودة

ثمة شىءلا يعرفه فى تلك الصخور يسمع ويرى.

قعد على حافة الفراش. مشدود البصر إلى التكوينات الغامضة، سماء دانية، قصية خالية من الغيوم، تحوم حوله بهجة مستعصية، ستصل اليوم. يلتفت إلى الفراش الآخر.

«صباح الخير.. كلودين»

لا.. لا تلفظ اسمها هكذا، كرره مرات، محاولا محاكاة لفظها، فيها تعبير عن مفاجأة، ودهشة، وتساؤل، وإفضاء

بسر. تنطق فكأنها تهمس، تتعجب به وله، أهي المقصودة ؟، يميل جسدها إلى الأمام. مع مخارج حروفها تسفر عن دعوة محدثها، تغويه بالقرب وتنفى أى خاطر بوقوع الاستحالة.تبتسم إذ تصغى إلى محاولاته سماع نطقها. تشف ملامحها عن وجود غير منظور.

ما بين وقوع عينيه عليها أول مرة، وسفرها من القاهرة سبعة أيام. وما بين سفرها ورحيله إلى مدينته تسعة شهور، وما بين وصوله وانفراده بها واتحادهما خمس ساعات. لم يتحقق ذلك الايام السبعة الأولى.

أقامت عند صاحبة تعمل مهندسة فى مشروع مترو الأنفاق. حدثته عنها. لم يلتق بها، أحيانا يتلقى رسائلها عليها طوابع بريد مصرية وأختام قاهرية، يستنتج أنها بعثت بها إلى صاحبتها مع مسافر أو مسافرة.

مساء كل يوم يكتب لها. يجلس ليخاطبها على الورق. يقص عليها ماجرى له. ما مر به. أطلعته على صندوق مغربى لونه بندقى غامق، خشبه معتق. كافة ما كتبه إليها. صورهما معا. تأمل الأوراق.المظاريف. أختام البريد، كأنه يتعرف إلى كلماته من جديد، يكتشف ما لم يطرأ عليه لحظات الكتابة، كأنه يتعرف الى كلماته من جديد.

بعد وصوله كان متعبا، متهيبا. إنها المرة الأولى التى ينزل فيها ضيفا على أنثى. وفى بلد غريب. تمنى ألا يسبب إزعاجا

ما. تحرك بحذر. أبدى تكلفا. وأسفرت عن بساطة، لم يعتد الرفقة.

قدمت إليه حاجاتها. مكتبها الصغير، القلم المغموس فى الدواة، المرايا المؤطرة بزخارف مغربية، هذا العدد الكبير من أوعية القهوة، اللوحات الصغيرة، منها البرتغالية المرسومة على الفللين، المكسيكية على لحاء الشجر، مشاهد مرشحة لطبيعة صينية على حديد، ألواح مستطيلة أو مستديرة من نحاس، زربية من جبال الأطلس الكبير تغطى الصالة، مجلدات بلغات شتى متجاورة، تتقدمها فوق الأرفف تماثيل دقيقة.

أمسك نرجيلة صغيرة من فضة. هديته الأولى لها. لوح بها. بادلته الابتسام. كل منهما يكتشف الذى لا يعرفه من الآخر بعد بدء الانفراد.

النافذة بامتداد الجدار، عريضة كتلك المطلة على الصخور. شقتها فى الطابق الثانى والعشرين. فى الأفق البرج الشهير، وعند قمة المرتفع قباب الكنيسة الشهيرة التى يقصدها السياح. قال:

«أفضل الأفق المفتوح..»

أومأت موافقة، أشارت باسطة يدها..

«هذا أول ما أرى صباح كل يوم..»

لم يكف عن الاستفسار، أى مقهى تفضل ؟ أى الأماكن

تذهب فى المساء؟ أى أصحاب يزورونها هنا؟ أشار إلى الكتاب المفتوح فوق المنضدة المجاورة للسرير.

«على الأقل ساعة قبل النوم، أما الصحف فبعد الغداء..»

قالت إنها تمضى أياما عدة بمفردها. فى أيام الأجازات تفضل الفرجة على التليفزيون بدلا من الخروج إلى الشوارع الرمادية الموحشة، الفارغة إلا من دوامات الرياح وأوراق الشجر المتساقط والضياع.

تدفق منه حنو تجاهها، حاول مساعدتها أثناء إعدادها طعام العشاء لكنها طلبت منه أن يقعد. منذ صباح الغد يمكنه أن يفعل ما يشاء. أطلعته على محتويات الثلاجة. علب الشاى والقهوة ومكان السكر. والنعناع المحفوظ فى أكياس صغيرة. أحضرته من أجله لأنه قال مرة إنه يحبه ويفضله.

عند العاشرة ليلا توقف أمام النافذة. تطلع إلى أضواء المدينة، مستدعيا القاهرة النائية والتى تفيض حيوية، خاصة فى أماكن نشأته ودراسته وعمله.

الأحياء القديمة، فى أى ساعة من الليل يمكنه أن ينزل إلى الطريق فيجد من يتحدث إليه، ويعود بما يرغب شراءه، هذه المسافة من سوق السروجيين حتى باب زويلة، صعودا إلى باب الوزير. شريان يدفق دما وضوءا وإنسانية!

لم يبدأ ليلته الأولى بعد، وبدأ حنينه الممض، بل إن الفقد يتحرك الوعى به دائماً فى البداية. قبل الانغماس فيما ينتظره،

حاول إخفاء كمد عابر كاد يمسك به. استشعر حركتها بدون رؤيتها، ضجيج حضورها وفورانه.

التفت..

متهيئة.. سافرة.

ما من أجمل وأرق وأكثر سحراً وغموضا من امرأة راغبة. ساعية، قميص شفاف، قصير، يفصح عن تخومها المذهلة. أما صدرها النافر فأحدث زحزحة داخله، نهدان طليقان، مقيدان، مشهران، ملمحان إلى أكرية الكون والوقت. أما كتفاها فازداد انحناؤهما، كانا ملساوين، مكتملين، غائبين وموجودين.

يستدعي لحظات مماثلة، محبوبة عرفها يوما على سفر أيضا، أورثه فقدها حسرات، في كل خلوة تصر على ارتداء ما يروق له، تبدل قمصانها. أردية النوم، حتى تلمح لمعة عينيه، تستقر وترضى.

لم تتعمد بداية عرض. إنما كانت في تغير مستمر، كل لحظة تبدى جديدا لم يعهده منها. راحت وجاءت. لم تظهر تكلفا أو خجلا. أفسحت لثيابه موضعا في الصوان، حاول منع عينيه من تعقب ردفيها، خاصة عند انحنائها. كان الزجاج شفافا، وأصداء المدينة تصلهما. لم يشد الستائر، سيشهد الكون ليلتهما!

لحظة خروجها من غرفة النوم ممسكة علبة دواء صغيرة. اندلعت كوامنه فجأة. كأنه انتبه إلى خلوتهما. إلى تألقها

الحسى، لأول مرة. فارقته الرهبة التى اعتادها قبل الاتصال الأول. تبدد خوفه من الفشل، لكن دقات قلبه هرعت تقتفى بعضها، عندما حاذته، لامس معصمها، أحاطه، التفتت، هل بوسعه نسيان ابتسامتها تلك؟، مستحيل، ربما يغمض عينيه إلى الأبد وآخر ما يصحبه معه قوس قزحها.

أقدمت صوبه. احاطت عنقه. شبت على أطراف أصابعها بميل نحوه فحل صدرها ضيفا عليه. لامس نداوتها عند نقطة مصير الخصر الى بداية تقبب الردفين. سرى جسدها عبر مسامه إلى ركنه المقيم. بعبيره. بإقباله وإدباره. بتأججه. بمفارقه ونواصيه، تبدد كل اتزان عنده بعد تسليمها مفاتيح مدينة روحها إليه، أما زفراتها الحرى فأججت قواه التى ظن تلاشيها، سرحات يديها تبعث القشعريرة بتذكرها فما البال عند حضورها؟ أما دفسها وجهها فى صدره فجعل مبررا جديدا لاستمراره حيا يسعى.

صار فى خلق جديد.

أضيف إلى زمنه مقدار لم يعد له العدة. كانت منفلتة. نائية عن أى اعتبار، ساعية إلى ارضائه والحنو عليه، بادلها دفقا بدفق فاسترد حريته الأولى.

لا يستعيد البداية إلا بتأجج حضوره. يصعب عليه الهجوع، قام واقفا. أشعة الشمس تتخلل الصخور التى بدا طلعها مختلفا. كما احتضنها فى مواجهة مدينتها سيضمها هنا متحديا كافة القوى والأزمنة التى عبرت هذه الأكم.

كان جسده مشهرا رغبته فى مواجهة المدينة المتوارية وكأنه يعلن قصده: افتضاضها.

نادى بصوت خافت، أينما حلت الآن تصغى إليه، سيقص عليها نبأ تلك الليلة، أمضاها بمفرده فى الفندق، ما من نزيل غيره.

عندما وقف أول صباح يحلق ذقنه أمام مرآتها التى تغطى الجدار، وقفت لحيظات عند الباب الموارب. تقدمت. أسندت وجنتها إلى ظهره، أحاطته، طلبت منه أن يستمر. فارقه أى حرج، يتحرك فى البيت وكأنه مقيم منذ وقت طويل، صار مرحا، خفيف الخطو، أجرأ بعد أن توالجا، بعد اتحادها به، طلب أن تقف كما جاءت إلى الدنيا.

بدت نصبا حيا، دافقا للأنوثة.

كان راغبا فى تثبيت كافة ما يمت إليها عنده. بدأ بتقبيل شعرها وتمريغ أنفه فى خصله. طرق كوامنها. وعندما انحنى متأملا تناسق قدميها. لم تطق. انحنت، تتخلل شعره، تردد اسمه بتأثر، بحنو، بأزلية أمومية، حريصة على احتوائه واختزال مداريهما، فكأنها تريد إعادته إلى رحمها المكنون عند اتحادهما.

المغارات..

هى الآن فى نفس البلد.

وصل الفوج. لم يغلق المطار رغم اشتداد العواصف. هل يعوقها انقطاع الطرق؟. لم تفته نشرة أخبار واحدة. يعرف مصطلحات المرور الآن. هذه سالكة وتلك مغلقة وأخرى يلزم الحذر لاجتيازها.

قبل مغادرته الحجرة للمرة الثالثة خلال ساعتين التفت إلى المقعد المواجه للمرآة.

«لماذا اخترت هذه التوقيت».

تبسط راحتيها. تمط شفتيها. تتخذ ملامحها أوضاعا مغايرة تستمدها من طفولة كامنة، غاربة..

«ترتيب يتعلق بعملى.. لا يد لى فيه».

ينبعث صوتها منه. تتردد لوازمها داخله. تراوغه على البعد إذ يرغب فى الإصغاء إلى نطقها اسمها. عند جلوسه منفردا. يخطه بعناية. مرة بالعربية، يعيد رسمه، بالنسخ، بالثلث، بالخط الديوانى أو النستعليق، ثم يكتبه باللاتينية. كل حرف يورق زهورا، وأغصانا.

لكن.. هل يثق من وصولها؟

ربما جرى ما أعاقها. لا يمكن الاستدلال على اسم معين بين أفراد الفوج، يقتضى ذلك اتصالات عديدة، المؤكد أنهم نزلوا أحد فنادق عمان. ينتظرون تحسن الطقس. الطرق فى العاصمة ذاتها صعبة. بعضها مغلق.

حرص على أن يبدو هادئا. وإن أدرك كل من فى الفندق أنه ينتظر عزيزا عليه، وأنها أنثى. حقا.. وأى أنثى؟ أى حنو يسعى؟ وأى تتويج للحقيقة؟

تكرر خروجه إلى الشوارع المحيطة، لكنه لم يقرب السيق. لن يسعى إلى المدينة القديمة إلا بصحبتها. اعتاد تناول الشاى فى مطعم الاستراحة الحكومية. إطالة النظر إلى المرتفعات المحيطة، الحديث إلى القوم، بدا مدير الاستراحة حزينا، غائبا عن المثول بدرجة ما، قال إن عددا من المصريين يعملون فى المدينة. أحدهم نجا من التجمد بأعجوبة. كان قادما من مكة. نزل فى منطقة «أذرح» تبعد حوالى عشرين كيلو مترا، بدأ المشى قاصدا وادى موسى والرياح باردة تقص الوجود قصا. خاض العاصفة، استمر، تقدم، تعثر، لم ير الثلج فى حياته ومع ذلك عرف كيف يقاومه. لم يكن يرتدى إلا معطفا وجلبابا وسراويل طويلة. بيده حقيبة لم يفارقها. قال إنه من الصعيد، ويعمل مزارعا بحديقة فاكهة.

قال المدير سريع اللهجة، مقتضب العبارة إنه عاش فى النمسا اثنتين وعشرين سنة، فى بلدة قرب الحدود الألمانية..

«عندى هناك طفلان..»

لماذا عاد؟

لماذا فارق زوجته وطفليه؟.

لم يفصح عن فضوله. اكتفى بمتابعة المدير الذى يتكلم. يتكلم بسرعة ثم يكف فجأة، سارحا بعينيه إلى ما يصعب إدراكه. يجيء البعض ويمكثون مددا متفاوتة، ثم ينصرفون بعد إحكام الغطاء أحمر اللون حول الرءوس والأعناق. عندما رآه فى الصور ظنه مجرد زينة.

موظف بمحطة الكهرباء يسكن أعالى البلدة. طباخ كثيف الشارب، سائق من الخليل اضطر إلى الإقامة لانقطاع الطريق. استفسر منه عن الثلوج وتراكمها، عن الأفواج، عن المناخ المتقلب، العنيف هذا العام، هل له علاقة بحرب الخليج وحرائق الكويت؟

«بالتأكيد حدث تغير..»

تابع المناقشة صامتا. من أخطأ؟ العراق أو الكويت؟. قال أحدهم إن الحسابات لم تكن دقيقة.

قال آخر إن ملايين تشردوا، قال ثالث إن الصواريخ التى أطلقت عمل لا يمكن تجاهله. النفطيون كفوا عن المجىء لقضاء الأجازات، شربهم الويسكى، الخمور، أحدهم دهس طفلا عند الطريق المؤدى إلى قلعة الشوبك، عندما جاء والده أخرج مبلغا

كبيرا من المال. لكن الأب وقف صامتا. ذاهلا. ثم أخرج غدارته، أفرغها فى رأس القاتل!

العاطلون. اللاجئون. الفارون. الخيول المنتظرة قدوم السياح فى الفراغ أدخلوها الحظائر، حرام ترك الحيوانات فى الخلاء. ليس من المنتظر قدوم إنسان هذه الليلة أو صباح الغد، فى نشرة السادسة يعلنون ما سيكون عليه الحال غدا. لكن هناك أجانب فى البتراء. يمضون الليل هناك.

«هل هذا طبيعى؟»

قال أحمد المتخصص فى آثار المنطقة إن ذلك يحدث كثيرا. وإن بعضهم يفضل الاقامة فى المغر على الفنادق.

«أى مغر؟»

المغارات.. فى الخارج لا يكف الثلج، بدا الأثرى متعبا، يلف رأسه بغطاء مماثل، ملامحه قوية، بارز الأسنان، قدر أنه تجاوز الثلاثين، وأنهما من الممكن أن يصبحا أصدقاء، قال السائق من المحتمل مجىء بعض الجواسيس.

قال المدير إن هذا ممكن.

قال الأثرى الشاب ان البدول يعودون الآن إلى مغاراتهم، لكل أسرة كهف فى الجبل، بعضه فسيح مريح، اعتادوا العيش هناك، الحكومة أرادت أن تخلى المواقع منهم لحماية الآثار، شيدت لهم بيوتا مريحة، فيها الكهرباء والماء على مقربة، لكنهم

أثاروا مشاكل عديدة، والآن بدأوا يعودون، معظمهم ولد في الكهوف، اعتادوها، ومنهم من يريد البقاء قرب المكان الذى اختفى فيه ضبعان.

قال إن مثل ذلك جرى فى الأقصر منذ حوالى نصف قرن عندما بنى المهندس فتحى قرية القرنة، صارت مزارا، لكنْ الأهالى رفضوا الإقامة فى بيوتها، عادوا إلى منازلهم القديمة.

قال إنه قرأ عن تجربة حسن فتحى، وأن ثمة تشابها قويا. كان الحوار حول البتراء والقرنة بداية تعارف كل منهما بالآخر، وفى المساء أطلعه على انتظاره وقلقه، بل سبب مجيئه، أبدى دهشة لأنه لم ير المدينة القديمة.

«كم تبقى لك هنا؟»

«أربعة أيام»

«لاتخسر يوما واحدا، أمض الى المدينة، وعندما تجئ صاحبتك ستطلعها على ماتعرفه.. أنت دليلها.

«المهم أن تصل..»

تطلع الى السماء. قال إن الثلوج ستنزل بكثافة يعرف تلك الغيوم جيدا. ما من شيء مؤكد ما دامت العاصفة مستمرة.

فى السوق..

لابد أن حارس الباب، وموظف الأمن، ومن يرقبه خفية من حيث لا يدرى اعتادوا خروجة اليومى، خطاه السريعة كأنه سيلحق بموعد هام تأخر عنه.

يعرفونه الآن. بل أخبره الأثرى أن بعضهم أشار إلى الفندق أمس من المرتفع:

لا يوجد به إلا المصرى..

ما من مفر. يوم واحد ويشرع فى الرحيل، مجرد فتح الطريق، أى يوم يتجاوز مدته المقررة يعرضه للحرج، اقتنع صباح اليوم بما قاله صاحبه، أن يلقى نظرة، المدينة تستحق، وإذا كان اللقاء لم يتم، فليقص عليها ما جرى، ليصف لها وقته المعزول.

«يمكنك أن تبدأ بعد الإفطار وسألحق بك عند الظهيرة..»

طلب منه أن ينتظره عند المسرح الرومانى، سيصحبه إلى أعلى الدير، ولكن يجب ألا يضيع وقتا، ظروف نادرة يرى فيها البتراء.

يميل الطريق منحدرا. حصى صغير مختلط بالرمال. شظايا أحجار. مداخل الكهوف المهدة. الصخور المستقيمة الجوانب، خزائن الجن. قبر السلات. الواجهات مطموسة

المعالم. بقايا قنوات المياه القديمة. تابعه الحارس دهشا من داخل الحجرة ذات الجدران من الصفيح المضلع.

يلتفت إلى الوراء. نصحه صاحبه أن يمضى مع السيق. ألا يحيد، ألا يتسلق صخرا مهما بدا درج أو طريق ممهد.

يلتفت إلى الوراء.

لا أحد.

لماذا يشعر أن هناك من يرقبه. يتابعه. صمت جليدى. حتى الرياح كفت تماما. كأنه فى بداية الخليقة. لضيقه خلال أيام انتظارها عجز عن استدعائها. خلال اليومين اللذين أعقبا وصوله لم يكف عن تخيل انفعالاتها، اقتراحاتها المفاجئة الممكنة.

لكن مع انقطاع الطرق، وغموض موقف وصولها إلى عمان، ورنين الهاتف فى بيتها بدون إجابة، دفعه هذا إلى كمد لم يخفف منه إلا صحبته أحمد الاثرى وإن لم ينقطع رجاؤه من مثولها أمامه فجأة، لكم تطلع إلى الهاتف الهامد. ود لو أن رنينا أشعل توقعه. حتى وإن خاب، لكن من سيتصل هنا به؟

ليس بحاجة إلى مراجعة الكتيب الصغير. أمده صاحبه بالكثير. كذلك موظفو الفندق الذين أبدوا اهتماما به. أليس النزيل الوحيد؟

أكد المدير أن التعليمات تقضى باستمرار العمل، اضاءة

كاملة، وموسيقى مستمرة. ومطاعم متأهبة، نظافة فى مواعيدها، حتى وإن لم يكن هناك نزيل واحد.

لابد أن وجوده يمنح الجميع سببا لبقائهم ومداومتهم أعمالهم، بمجرد ظهوره يتسابقون إليه. يسألونه عما إذا كان فى حاجة إلى شىء ما؟

فى اليوم الرابع كانوا مطلعين على مكنونه، كلمة من هنا وكلمة من هناك ألموا بدوافع قدومه، خاصة موظف الاستقبال الشاب الذى استقبله فى اليوم الأول. أبدى تعاطفا، وحكى بعضا مما عنده..

. يتوقف لحظات فوق جسر حديث، أقيم فوق موضع آخر قديم، يحمى السيق من تدفق السيول، بعد أن جرفت المياه ثلاثة عشر.فرنسيا..

«لا.. كان ذلك قبل الجسر. الآن يمكنك دخول السيق فى أمان.. لكن مع التزام الحذر!»

مع كل خطوة يعمق الصمت، سكون أزلى قادم من عصور سحيقة، عند المدخل الطبيعى، بداية السيق، إلى اليمين مقاعد متناثرة ومنضدتان، لافتة تعلن عن شاى وقهوة ومثلجات. لكن.. لاأحد.

لو أنها إلى جواره الآن!

هذا مقهى يقصده العائدون وليس الذاهبون إلى البتراء.

يدعوها إلى الجلوس لحظات.

«طبعا.. لا يمكن المرور أمام مقهى إلا وتجلس إليه حتى لو كان مجرد لافتة».

صباحهما الأول. أول شمس تشرق على توحدهما أزاح الباب المتحرك، أصبحت غرفة النوم والصالة المكنونة مساحة واحدة تنتهى بالنافذة التى تحتل عرض الجدار. أزاح الستائر تماما. أطل على المدينة، ضباب كثيف يغطى قمم البيوت.

«لم يكتمل النهار بعد.. كأنه الفجر»

قالت:

«هل تعلم أن أعتم لحظات الليل تلك التى تسبق الفجر؟»

ليته يستعيد حوارهما معا، أو كلماتها أثناء حركتها فى الحين، ضمها إليه. قال إن مثل هذه اللحظات يسميها العروسان فى مصر «الصباحية»

تردد:

«الـ .. السباهية..»

محاولتها نطق الصاد والحاء تثير مرحه، يقبل شفتيها، تتألق عيناها بحيوية. داخله يدفق نشاطا لم يعهده. أكثر من أربع وعشرين ساعة بدون نوم، عندما اندلع تأججها خشى الحينة. لكن ما بدا منها أثار زهوه. ريها البادى ورضاؤها حتى أنه سعى مرة أخرى يستعيد تعلقها به وتكوكبه بمدارها،

وقبض جسدها لجسده، إحاطتها به وتدرجها كأصابع عازف ماهر أثناء انتقالها على درجات الناى الخشبى!

لم يكن يحتضنها إنما يتعلق بها. لم يكن يدفع بنفسه إنما يتلمس أسباب الحياة، وعندما أغفى بجوارها لم تدهمه تلك الهواجم إذ يبدأ انتقاله من اليقظة إلى النعاس.

ما أشد الشسوع بين استعادته لما كان بينهما عند وصوله، طوال اليوم الأول وحتى الثانى، وبين انبعاث هذه اللحظات الآن وقد دنا وقته من الانقضاء، وصار وصولها أملا عسر التحقق. فى البداية كان يتقد متحفزا متوقعا لما سيكون، أما الآن فكأنه يرثى ما كان.

يستدير ملتفتا. لقد أوغل. منحنى لم يشعر به حجب عنه مقاعد المقهى الخاوى. الأرض تزداد خشونة. فى الصخور نوافذ محفورة لا تطل على شىء. لاتؤدى إلا صوب نفسها. من صخر إلى صخر أصم يتبدل النظر. ما يشبه وجوها آدمية. مجرد خطوط، أفواها مزمومة، رموزا، إشارات إلى ملوك عبروا. لم يتبق منهم إلا تلك الإشارات المستعصية..

تقول وهى تدنو منه:

«عش زمنك»

يجيبها مجادلا:

«ما من حاضر»

تشير إليه بأصبع اكتسبت حدة تميز إشاراته .

«أنت تعيش فى الماضى»

يبتسم هادئا .

«وحتى هذا لا يمكن إدراكه..»

يكاد يصغى إلى لفظها فى هذا الصمت المقبوو، ترتفع الصخور على الجانبين عبر تكوينات متتابعة. تبدو السماء بعيدة. يوغل الآن وحيدا. لا يعرف مكانها الآن؟. هل تقع المفاجأة فيجدها عند عودته إلى الفندق؟

هل تظهر أمامه فجأة عند أحد المنحنيات، أو يلتفت فيراها ساعية إليه؟ وصلت بعد فتح الطريق، بمجرد علمها ذهابه إلى السيق سارعت اللحاق به.

حدثه أحمد الأثرى، فقال إنه عرف العديدات من زائرات البتراء، كل منهن تنتمى إلى جنسية، لكنه لن ينسى أبدا بنية ماليزية، تعمل مضيفة فى شركة أسيوية، جاءت مع زملائها أول مرة، كانوا تسعة.. ثلاثة ذكور وست إناث. صحبهم سبع ساعات، المدة المتاحة لهم، لكنه أيقن أن كلا منهما للآخر.

قال أحمد عن جده الغائب ضبعان إن مسار العلاقة بين الرجل والمرأة يتقرر منذ اللحظة الأولى. وإنه عند تطلعه إلى الوجوه يتأمل وعند ملامح بعينها يرسو ويبدأ.

منذ خمسين سنة جاءت امرأة انجليزية ترتدى قبعة عريضة وقفازا أبيض، أما زوجها فيمسك عصا قصيرة. كان طويلا.

فارها، يتحرك على مهل. جاءا فى زمن لم يكن قادرا على الوصول الى البتراء إلا الأثرياء. أصحاب المراكب العابرة للمسافات، والذين اعتادوا إنفاق جنيهات جورج الخامس الذهبية. كما تنفق الفلوس المعدنية الآن. منذ تلاقى نظراتهما فهم ضبعان.

لم تمكث مع زوجها إلا ليلة واحدة. أمضياها فى خيمة أحضراها معا. لمدة عشر سنوات كان يتلقى منها بطاقات من شتى أنحاء العالم. حتى أيقظوه يوما فى الخامسة صباحا، وعندما قالوا له إن امرأة أجنبية، قصيرة، ترتدى قبعة عريضة، تريده فى الخارج، قام متمهلا، غسل وجهه، وغير ريقه بكوب ملىء بزيت الزيتون المذاب فيه صفار عشر بيضات نيئة، ثم خرج راسخا، كان يثق أنها أتت. لهذا لم تبد عليه أى دهشة، التفت إليها. أو ما مرحبا. لم يضع يده فى يدها. مشى متمهلا وهى تحاول جاهدة اللحاق به، عيناها لم تفارقاه، كانت مشتاقة، وما من شيء فى الدنيا يفوق ملامح امرأة راغبة. نزلا من وادى موسى إلى السيق إلى خزنة فرعون. اتجه إلى اليمين، قبل أن يرتقى الدرج العتيق الصاعد توقف. لم يلتفت. لحقت به. حملها كطفل، اختفيا لمدة أسبوعين لم يسمع إنسان عنهما أى خبر.

ضبعان كان عالما بدروب الجبل، صخوره، مرتفعاته الصخرية، كافة المسارب الخفية، أما حجرة فرعون المعلقة فلا يمكن لمخلوق الوصول إليها عداه هو، مرات ثلاث شاهده

القوم، مطلا منها، يثق الجميع أنه يعرف مواضع كنوز البتراء من فضة وذهب وحلى لا مثيل لها، وأوان فخارية نادرة، لا تقدر بثمن لندرتها وقيمتها، يؤكدون أن ما يظهر من المدينة القديمة مجرد شيء ضئيل جدا. وأن ما يختفى من معابد وشوارع وساحات كثيرة.

قال أحمد إن جده أفضى إليه ببعض من مسارب البتراء وطرقاتها الخفية عبر الجبل. الدروب التى يسلكها الآن عرفها منه، أما ما درسه لسنوات عديدة فى كلية الآثار وفى أمريكا خلال بعثته هناك. فقطرة من بحر. وبعض من فيض ضبعان.

لا يعرف إنسان أين غاب مع الإنجليزية، كيف أمضيا مدتهما؟ كيف وفرا طعامهما وزادهما. خاصة أنه اشتهر بنهمه وقدرته حتى سمى بضبعان وغطى لقبه على اسمه الحقيقى. كان يفطر بثلاثين بيضة مضروبة فى السمن الذى تفوح رائحته من بعيد. وخمسة لترات من اللبن. ثلاثة طازجة واثنان حامض، وسبعة أرغفة. وحمل برقوق أو كمثرى أو برتقال. فاكهة مقطوفة للتو. لو مضى عليها ثلاث ساعات لا يقربها. زيت الزيتون يعبه عبا بدلا من الماء. فى الظهيرة يأتى على خروف كامل. لا يترك حتى الغضاريف، كانت حركة يديه فريدة فى تفكيك اللحم من العظم، خاصة الرأس، ويعقبه بطشت من الأرز المطهو بالدهن، فى العشاء يكتفى بسخل صغير ومرق كثير وفطائر وصينية كنافة بالجبن.

لم يستطع أحد منافسته فى قدرته على الأكل، أو فحولته التى ذاع أمرها، وعلمه بالجبل وما يخفى، لكن بعد تجاوزه المائة وقع أمر غريب، إذ تردد أن صبيا هولنديا اعتادت أمه أن تصحبه عند مجيئها إلى البتراء فى مهام علمية تفوق عليه، دعاهما ضبعان، كان له معرفة قديمة بالأم، عندما بدأ الغداء فوجىء القوم بالولد يأكل أسرع من ضبعان، استمرا معا حتى توقف والولد لم يكف، التهم لية خروف مسلوقة فى السمن. لم يبد انزعاجا انما ربت كتف الصبى بحنو زائد، وأعطاه أعشابا تنبت فى الشقوق ليتناولها إذا شعر بوهن، أو ألم به ضيق.

ظهر بصبحة الإنجليزية فى السيق. قابلهما واحد من الأدلة القدامى، بدت المرأة متألقة تضوى، تتوثب فرحة وبهجة. كأنها ارتدت صبية لم تمس، والأغرب أنها كانت تتكلم العربية. تفهم ما تسمعه وتجيب. هى التى لم تعرف حرفا واحدا قبل دخولها السيق بصحبته!

قيل إنها عرضت عليه قصرا من ثلاثة طوابق تحيطه حديقة يرمح فيه الخيل، وسفينة، لكنه أبى أن يصحبها، لم يقدم كما فعل البعض عندما تزوجوا بأجنبيات، وما جرى لزوج السويسرية معروف، بقى صامتا، كسيرا بعد عودته، انفرد بحاله عن أهله حتى عافه الناس.

قال أحمد أن الماليزية أمرها مختلف، عادت بعد شهور ستة، أعد كل شىء عند اتصالها به من عمان. صحبها إلى

مغارة قرب الدير، عند ذروة الجبل، مطلة على وادى عربة. عند الشروق وقبل الغروب يمكن رؤية البحر بوله من الافق. مكثا خمسة أيام، لم يفارقا موضعهما إلا للاستحمام فى العين الجارية، فى كل لحظة كان يتذكر جده، بل يتوقع ظهوره فجأة أمامه لينصحه أو ليقص عليه بعضا من تجاربه.

لماذا يشعر الآن بنظرات ضبعان؟، يكاد يوقن أنه ليس بمفرده فى السيق، أربعة عيون موزعة، عينا ضبعان وعينا كلودين، يحاول نفى الخاطر عن ذهنه، كأنه يخشى اجتماعهما فى تداعيات أفكاره؟ أو يلتقيا عبر مخيلته. مع أن ضبعان اختفى تماما ولم يعد يسعى. وهى لم تصل بعد.

يغار عليها؟

نعم..

لكم استفسر خفية وعلانية. إلى أى حد تصل علاقتها بهذا أو ذاك؟. ما مضى لا شأن له به، لكن ماذا عن الحاضر؟ عن الآتى؟

لم تفتها هواجسه. قالت فجأة أثناء تحديقهما إلى النهر:

«لم أرتبط بإنسان أثناء سفرى كما جرى معك»

يتطلع إلى تراكمات الصخور الشاهقة، تتقارب فى الأعالى حتى لا يبدو إلا شق نحيل من السماء، يطبق عليه المكان، لو جاءه مباشرة لظنها الإحاطة الكاملة، لا مخرج، على السفح

الأيمن خط طويل أقتم يبدأ من القمة غير المنظورة. خيوط من الماء. تتساقط القطرات فوق صخرة مستوية، تتشربها الأرض الرملية. ومن الصخر الوعر، تنبت شقائق النعمان والبنفسج وزهور صغيرة لم ير مثلها من قبل، عند نقطة معينة يبدأ جذر نخيل. يطل ثم يمضى صوب مركز الجاذبية ليبدأ ساق شجيرة تنمو بالمقلوب. قال أحمد إن جده كان يتعهدها، يرعاها، سماها «دلدل».

قال ضاحكا إن القوم يعتقدون أنه ما من إنسان يمر بها أو يمكث قربها إلا وتسرى الحرارة عنده، يتقد بالرغبة، من الشقوق النحيلة تنبثق أعشاب شتى. كان ضبعان يقطفها بعناية ويعالج بها المرضى ممن استعصى على الأطباء شفاؤهم.

ضبعان لم يذهب إلى طبيب قط. لم يتناول حبة أسبرين ولم تنغرس فى جسده إبرة حقنة، لم يغسل ثيابه إلا بصابون طبيعى مخلوط بزيت الزيتون. لم يتمدد إلا فوق حرام من صوف الغنم فوق الأرض مباشرة. كان يغزل صوف عباءته بنفسه ويشرف على نسجه فى معمل قريب أغلق منذ عشرين سنة ثم أعيد فتح المكان ليتحول إلى معرض لمشغولات المنطقة التى يطلبها السياح.

لم يرقد ضبعان فوق سرير قط، كان ينام هنا، فى أى مكان بالسيق داخل الجبل، لم يخش الزواحف، كان قادرا على

الإمساك بأشد أنواع الزواحف فتكا، كان العقرب الأسود والعنكبوت الأحمر ذو الوبر الأحمر يجرى فوق ذراعه ويقرصه مرسلا السم الزعاف إلى شرايينه فلا يعبأ، أما الطريشة والحنش الأسود والرقطاء وحية الإسفنج وثعبان الرمل فلا يقتربون منه. تتوقف سائر الهوام على بعد خطوتين بشريتين.

حدث أثناء صعوده المرتفع الصخرى المشرف على خزنة فرعون أن قفزت تجاهه أفعى رقطاء كانت تلبد بين أغصان شجرة شيح. لدغت رقبته، تراجع مرافقوه فزعين، لكن سرعان ما تعاظمت دهشتهم وهم يرونه واقفا، راسخا، متطلعا إلى الأفعى التى راحت تتلوى بين قدميه وكأن مسا أصابها. بقدميه العاريتين سحقها.

لم يمش فوق هذه الأرض الصعبة مرتديا حذاء قط. قدماه ضرب بهما المثل فى ضخامتهما. مع مشيه فوق الصخر، فى الحر والبرد، تقدد جلده، أصبح طبقة قاتمة. لو داس جمرا مشتعلا لما بدا على ملامحه جزع.

قيل فى استعصائه على السموم إن أمه التى توفت بعد بلوغها التسعين أرضعته مقادير معينة من سموم الأفاعى مع حليبها، وأنها حرقت عقربا. وضعت رماده على ثديها قبل أن تلقمه حلمتها.

قيل إنه يضع حجابا مثلثا تحت إبطه يقيه كافة أنواع الحشرات الضارة. وحجاب تحت الأيمن يمنع الرصاص

والشظايا من اختراق جسده. عندما شارك فى الحرب ضد الأتراك أثار رعبا. كان يتقدم واقفا والرصاص يرتد عنه، والشظايا تحيد عنه.

قال أحمد إن جده كان يتسلق ذرى الجبال، جبل الدير، جبل المذبح. جبل هارون، كان يبدو للناظرين فوق أعلى نقطة من جبل خبثة، لم يبلغها أحد بعده. فى ذروة العاصفة الثلجية يتجرد تماما من ثيابه، يدلك جسده بالثلج قبل بلوغ ندفه سطح اليابسة، عادة أتقنها من امرأة روسية أقامت بالناحية منذ سبعين عاما، كانت هارية من الثورة، لم تمكث طويلا، لكنه يذكرها دائما وكأنه عرفها بالأمس.

أما عن قدرته وفحولته فتروى حكايات عديدة وأقاويل بلا حصر عن تمكنه وصبره على النساء وفهمه كلا منهن، أما عضوه فلا مثيل له. حتى أنه إذا نام على ظهره وانفظ يظن الناظر من بعيد أنه عامود متين أو نصب غامض ظهر فى الفراغ فجأة، لم تتحدث امرأته عن حياتها معه. حتى لأقرب صديقاتها اللواتى اعتدت أن يفضفضن ويتناولن ادق شئونهن. لكن بعضهن يؤكدن أنه كان يترفق بها، ويتكىء على راحتيه رافعا نفسه عن الأرض حتى لا يفقأ رحمها. أما هؤلاء النسوة الأجنبيات فلا يعرف أحد كيف احتملنه، لكن ما من أنثى عرفته الا وتعلقت به، حاولت العودة إليه ولو كانت فى آخر العالم. كثيرات أنجبن منه أطفالا. يتوزعون الآن فى أقطار الدنيا. هذا

الولد الهولندى الذى تفوق عليه فى الأكل لابد أنه من صلبه.

بعد اختفائه جاء رجل فى الستين، عيناه ضيقتان، وجنتاه عريضتان، خليط من ملامح عربية وأخرى يابانية أو صينية. سأل عن أبيه ضبعان.

فى عام آخر شاب من فارس. وقف عند مدخل السيق وقرأ قصيدة بالفارسية ينادى فيها أباه أن يظهر، ثم بكى ومضى. وثالث لسانه عربى مبين من المغرب. ورابع من جزيرة بورتريكو. وخامس من جزيرة تقع عند آخر حد العمار قبل بلوغ القطب الجنوبى، وسادس من تشاد، وسابع. وتاسع.. لا يمر شهر إلا ويفد رجل أو امرأة، شيخ أو شاب، يسألون عنه. وفى عيونهم شوق، وحيرة، وسؤال.

كانوا يتوقفون أمام السيق، تماما كما توقف ضبعان بعض الوقت. قبل أن يلجه متمهلا، هكذا يعبرونه، من نقطة معينة داخلة لا يعرفها أحد بدأ تسلقه الصخر، انتهى إلى حجرة فرعون كما يؤكد البدول سكان الكهوف.

كانوا يتوقفون فى مواجهة المقبرة، المعبد، يتطلعون إلى الحجرة المحفورة فى بروز من الصخر الوعر، يتطلعون صامتين، أو يذرفون دمعا، بعضهم ينادى، تعارف عدد منهم، تردد فى الوادى أنهم سيفدون فى يوم معين يوافق غيابه، كل منهم أخبر عن هاتف قوى أتاه فى المنام، ناداه بلغة من منشأ وأقام بينهم ودعاه للمجىء إلى البتراء. هؤلاء من استطاعوا

القدوم، أما الذين لم يتمكنوا فلا يدرى أحد عددهم بالضبط، أو جهاتهم.

يكاد يسمع نبر صوتها الهادئ عندما سألته بعد أيام ثلاثة من تصريحها برغبتها:

«لماذا كتمت انزعاجك عندما أخبرتك برغبتى فى إنجاب طفل منك؟»

يفاجأ، إذن.. من طباعها اثارة الموضوعات الحرجة فى أوقات غير متوقعة. وبهدوء لا يوحى بخطورة ما تتناوله. فى مواجهتها لم يكن قادرا على تمويه مشاعره. قال إنه يفكر منذ تصريحها، وإنه مضطرب، أومأت:

«أعرف . إننى أشعر بك..»

قال إن ذلك بالنسبة له غريب، لم يتزوج لظروف شتى، لم تمض حياته في مسارها الطبيعي. تعايش مع الأمر. خاصة مع تقدمه وطيه السنين طيا. أو احتواء الوقت له، لا يدرى أيهما يفنى الآخر؟

تبدو له فكرة إنجابه طفلا بدون زواج غريبة، كيف يسعى بعيدا عنه؟

قالت إن مجيئه ليس مشكلة بالنسبة لها، في بلادها ما يعنيهم مجيء الطفل، وليس مهما كيف جاء؟

لمس معصمها، قال:

«ولكنها مشكلة بالنسبة لي.. مشكلة هنا»

قالت إنها تدعوه، ما عليه إلا أن يشد رحاله ويستقر معها، نظر إليها صامتا، حرجا، يتحاشى وقوع المبارزات الكلامية.

تعرض عليه الإقامة، الانتقال وهى التى تسافر دائما. لماذا لا تجيء هى عنده، إلى موطنه؟.

لا يمكنه أن يخلع نفسه هكذا بسهولة. أن يحيد بأيامه وقد مضى معظمها. هى لا تقدر وهو لا يمكنه. مع أن ظروف كل منهما متشابهة فى دائرة الموطن والإقامة. يوم جرى حوار مع صاحب له.

قال صديقه إن الإنسان بعد رحيله يتحول إلى تراب، وإنه لا يطيق أقداما أجنبية تطؤه عندما يصبح جزءا من الأرض. إذا كان الأمر حتمى فقومه أفضل. لهذا رفض الهجرة.

لم يصرح لها بذلك، ما يشده أمور تتعلق بأيامه وما سيتلوها من عدم، عندما تشاغل بالنظر إلى طيور بيضاء ذات مناقير خضراء تحط فوق النهر، قالت:

«نوع نادر لا يجيء إلا فى هذا الوقت..»

ثم قالت:

«لا تقلق .. لن أنجبه إلا إذا اقتنعت..»

ضحكت.

ض إلا شتاء.

كان يوم مفارقته بيته في وادى موسى إلى مغارته مشهودا، بعده يبدأ نزوح القوم من قبيلة النوافلة، لكل كهفه، يتوارثه أبا عن جد، يدخلون إلى بطن الجبل، هذا عرف قديم.

حدث أحمد فقال إن امرأة إسترالية، تتقن العربية وتتردد على البتراء لدراسة نقوشها وفك رموزها تسلقت الدروب العتيقة، لكنها حادت في سعيها. وصلت الى صخرة معلقة يصعب الوصول إليها، صرخت. . تطلع إليها القوم من الوادى.

كيف وصلت الى هذا الموضع الذى لم يظهر عنده إنس ولا حيوان؟

جاء ضبعان. ضرب كفا بكف عندما رآها.

«متى بدأ صعودها؟»

قالوا إنها اختفت منذ الأمس. ولا يدرى أحد كيف وصلت هناك؟، قال إن هذه الصخرة التى يراها الجميع قريبة أبعد مما يتصور أى إنسان، إنه فى حاجة إلى أربع عشرة ساعة ليصل إليها. ربما لن تقدر على المكث. لو أغمضت عينيها ستسقط، موضع لا يتسع إلا لشخص، لكنه سيبدأ قاصدا الصخرة الأعلى، يصلها بعد ساعتين. من هناك يدلى بحبل متين إليها، تتعلق به فيرفعها.

طلب ضبعان منهم أن يصرخوا، أن ينادوها باستمرار حتى

لا تغفو، لو نال منها الإعياء وغفت فهلاكها مبين. لمدة ساعتين لم يكف الرجـال والنسـاء.. حـتى الأطفـال، قـرعـوا الطبـول، والأوانى النحاسية، لا يمكن نسيان ذلك. بعد ساعتين بالضبط، تماما كما أخبر، ظهر فى ضوء القمر، عند النقطة التى حددها، كان باستطاعة الجميع رؤيته رغم شحوب النور وكثافة الظلال. بدا أطول وأعرض، زعق عليـها، ناداها بلسـانها. ألقى حبـلا مـجدولا، متينا. تعلقت به، بيد واحـدة راح يرفـعـها بدون أن ينحنى، كان تجاوز المائة وقتئذ.

لماذا يلح عليه ضبعان؟

لماذا يخيل إليه أنه متطلع صوبه؟

هل يعـرف أبناءه الموزعين فى شتى أنحـاء الدنيـا؟. هل حن إلى رؤية أحدهم؟. هل ينزل من مخبئه المجهول ليظهر أمامه فجأة، يقولون إنه ظل محتفظا ببهائه القديم، لم يعرف الشيب طريقـه إلـى شعـرة واحدة من رأسـه، لم تره أنثى إلا رغبتـه، كـان القوم يخشـون علـى بنـاتهم ونسـائهم منـه، رغـم علمـهم أنـه لا يمكن أن يرفع النظر إلى واحــدة منهن، لكن النفس راغبة، طامعـة، بعد غيابه شددوا عليهن خشـية أن يتبعه بعضـهن، يؤكد معظمـهم أنه مـقيم فى حـجرة فـرعون. وأن الأهالى يصغون إلى تردد أنفاسه وتقلبه فى الوقت.

للهواء صفير غريب عند هذا المنحنى الضيق. يكاد شطرا الجبل أن يتماسا عند قمتهما. حذره صاحبه من انهيارات

مفاجئة. وحوش يمكن أن تظهر فجأة. حدث أحمد فقال إن صيادا عاش منذ خمسة وسبعين سنة. كان مشهورا بقنص الغزال والكباش البرية. فى أحد الأيام انحنى يذبح أحدها، فجأة.. ظهر حيوان أمامه. يشبه النمر لكنه ليس نمرا. تمالك أعصابه.

اقتطع جزءا من الشاة رماه إليه. ما تبقى وضعه فى جوال حمله مبتعدا بخطى ثابتة غير هياب، فيما بعد. فى كل مرة يصعد إلى الجبل. أو ينزل إلى الوادى، لحظة ذبحه الفريسة يفاجأ بالحيوان أمامه، ينتظر نصيبه، لم يخلف مرة قط، استمر ذلك سنوات، حتى طلع نهار لم يستيقظ فيه. لحظة دفنه فوجئ القوم. صراخ يتردد فى الجبال. فزعوا، رأوا الحيوان فوق أعلى نقطة من السيق. كان مشرفا على حفرة القبر من عل، وفى عوائه مس آدمى غريب، نصحهم ضبعان ألا يتصدوا له، لمدة أربعين يوما لم ينقطع نواحه، وقرب الفجر ينزل ليجثو عند القبر، يتحول صراخه إلى عويل غامض، يخشع لسماعه الكافة!

قال أحمد:

«لا تحد عن السيق، لا تعرج هنا أو هناك مهما لاح لك من إغراء..»

لو ظهر ضبعان الآن، لو وقع ما يتمناه ولا ينتظره ورآها مقبلة من الناحية الأخرى. أو من خلفه سيتقدم صوبها، ستنتظر

إلى عينيه، يثق أنها ستفهم. ما رغبته يمكنه تحقيقه الآن، فى هذه الثنايا متسع للخلوة، لم يفت الوقت بعد. سيقيمان هنا حتى يقع التأكد من زرع البذرة وبث النواة.

تتنوع ألوان الصخور، اللون الوردى غالب، عبثا حاول أن يعرف معنى كلمة السيق. قال أحمد، وقال الآخرون إنه شق بين جبلين. رحم كونى، طبيعى، رحم الأرض التى لا يمكن الإحاطة بأطرافها، تتردد فيه أصداء الطقوس القديمة، وآلام القرابين، والأغانى التى تمايل القوم لسماعها يوما، وقدوم الرسل. وخروج السفارات إلى ممالك الدنيا.

ترق الصخور، يختلط اللون الوردى بأطياف زرقاء. يصبح لمرآها ملمس الحرير.

يتوقف بغتة..

بقدر ما روعته المفاجأة. بقدر ماأدركه ذلك الوهن الغامض، الغريب، واليقين أن ثمة من يرقبه، وأنه يتأهب للمسه، لكن لا يمكنه النظر إلى الوراء. لم يكن باستطاعته النظر إلا صوب الأمام.

انفراجة الصخور الضيقة. الشق يبلغ منتهاه. مهبل أرضى. يسده الفعل البشرى. واجهة وردية من حجر قديم. مستوية.

يصله صخب ضوئها القوى، الهادئ، انبثاقها عجيب، محسوب.

من الظلمة إلى النور أم من العتمة إلى الضوء؟، لم ينتقل من موضع إلى آخر، إنما من وقت إلى وقت، من حال إلى حال، لا يمت ما يراه إلى أى صورة اطلع عليها أو قرأ عنها، يحجب الحضور الوردى المتصل بالسيق كافة ما عداه، يتوقف، بينما يبدأ عنده ما يشبه الطفو إلى أعلى، إلى فراغ غامض يحده السيق الممتد..

مارس ١٩٩٢